الأستاذ بوعافية محمّد عبد الرزاق

كيمياء المجاز

بين الخطاب القرآني والإنساني

قراءة في المفهوم وآليات الفهم ومقاصد الخطاب

الإيداع القانوني: السداسي الثاني2019.
ISBN.978-9931-515--72-2
978-9931-515-72-2

كيمياء المجاز

بين الخطاب القرآني والإنساني

الأستاذ: بوعافية محمّد عبد الرزاق

كيمياء المجاز

بين الخطاب القرآني والإنساني

قراءة في المفهوم وآليات الفهم ومقاصد الخطاب

طبعة 2019

منشورات اقرأ راس الجبل حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

العنوان: كيمياء المجاز بين الخطاب القرآني والإنساني.

المؤلف: بوعافية محمد عبد الرزاق.

الحجم: 14/20سم.

عدد الصفحات: **216** صفحة.

الطبعة الأولى : 2019/1440هـ.

الناشر : مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع

حي فيلالي عمارة ب رقم3 قسنطينة- الجزائر.

هاتف|فاكس: 0021331925165 جوال: 00213797964157

البريد الإلكتروني: E-mail :hoikraa@gmail.com

ردمك: 978-9931-515-72-2

الإيداع القانوني: السداسي الثاني2019.

فهرس المحتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

"وكان فضل الله عليك عظيما"

الحمد للهِ الغني الذي وفّق عبدَه الفقيرَ إليه

أسأل الله العليم الحكيم أن يهديني إلى سبل الرشاد والحكمة.

<u>إهـــداء</u>

إلى من يجمعهم سرّ عظيم

سيبويه، الشافعي، الجرجاني، ابن رشد، الشاطبي

ابن حزم، ابن قتيبة، ابن البنّاء

سيّد قطب

توجيه:

كتابي هذا... كيمياء السعادة... وليس كيمياء العوام... فلا تتعب نفسك...

الكيمياء نصف الحكمة وهي نتاج الأسرار مثلما قال صاحب الرتبة... الكيمياء يعرّفها القنوجي بأنّها "علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية وجلب خاصية جديدة إليها وإفادتها خواصا لم تكن لها " كذلك يحوّل المجاز خواص العبارة اللغويّة وتظهر بفعل خفي دلالاتٌ أخرى أوسع وأعمق لم تكن لها من قبل، الكيمياء لفظ معرّب من اللفظ العبراني "كيم يه" بمعنى أنّه "مِن الله" كذلك المجاز، موهبة ربّانيّة من الله على هذه اللغة الجليلة، فتبقى حيّة وأنوارها أبديّة بالمعاني والدلالات... والإنسان هو العالم الأصغر، تتجلى فيه الحقائق الكبرى بقدر معرفته، والكلمة لها قوّة الخلق والتكوين، إنّ اللغة تحقيق لوجود الحقائق، وكلّما عظمت الحقائق كلّما قامت اللغة بالتجاوز، فالمجاز هو المظهر الأقوى لوجود المعاني، لأنّه يحكم مملكة الخيال التي قال عنها عبد الرحمن الجيلي رحمه الله :

إنّ الخيال حيـاة روح العـــــالم   هو أصل تيك وأصلــه ابن الآدم
ليس الوجود سوى خيال عند من   يـــدري الخيال بقدرة المتعاظم

والخيال من عالم الباطن، وكما قال محمد بن عبد الجبار النفّري :"العلم لسان الظاهر والمعرفة لسان الباطن" فإنّ المجاز لغة المعرفة، والمجاز من لغات النّار، وفي لغات النار قال :

في النور نار بوجه النار ساتــرة عن وجهها ولغات النّار تعنيها

تخفى وتظهر والإحسان يوقفها إذ لا يطاق على حكمٍ معانيـها

المجاز مفتاح المعرفة...كيمياء تمزج العوالم لتخرج إكسير الجمال والحياة والحب والحقيقة، والروح الإنساني هو المشرّف بفعل هذه الكيمياء المباركة...

لا أنسى ذلك الشيخ الذي أخذت عنه هذه العبارة : "وفي الإشارة لذوي الفهم تصريح كثير" ...وأنا الذي عشقت جمع المتضادات والمتناقضات ... وجدت في الإشارة التصريح لأنّ معراج الفهم كان بين أيدينا ونحن عنه غافلون... نعم جمع المتناقضات وتأليفها هوايتي منذ الصغر... إنّها لبّ المعاملة ونصف العمل، واعتبر في ذلك بقوله "علّم آدم الأسماء كلّها " ففيه معتبر ...

هذه الكيمياء في علم البيان، والبيان عماد العلم والمعرفة ... هذه الكيمياء كتبت بألسنة متعدّدة... فلاتستغرب... فيها العرفان وعلم الظاهر وفيها البيان متوسّط بين عالمين... والعقل يستجدي الحقيقة من

خيال أليس الإنسان كيمياء عجيبة، تمتزج فيه المكونات ليكون الإكسير أرقى مخلوق على وجه الأرض ... المكرّم المشرّف المسجود له في الملأ الأعلى ... والمجاز كيمياء عجيبة تمتزج فيه خواص اللغة لتخرج الإكسير البيان الأرقى والأجمل والأقوى ... إنّ في البيان والبلاغة سرّا لا يدركه إلا العارفون ... فالحمد لله الذي خلق الإنسان وعلّمه البيان ...

الزوايا وديوان أهل الأحوال شجرة مباركة في حياتي تظلّلني... وتعلّمت فيها ما شاء الله لي أن أتعلّمه ... متون العرفان ليست أوراقا فيها كلمات، بل أحوالا تسري في كيانك فتملك منك الوجدان ...

شكرا لأمّي ... التي أحسبها دوما من أهل الولاية .. وكرامتها صبرها على الابتلاء ... أرجو من الله أن يعوّضها خيرا على ما ابتلاها به وصبرت عليه... شكرا لكِ على كل حكاية ربّانيّة تلقّيتها منك فتربّيت على كرامتها... كانت تروي لي من أحوال الصالحين وأهل الولاية ... وتعلّمت في رحاب ديوانك المبارك كيف أنّ الإخلاص وتصحيح النيّة يبلّغ الله به كلّ مرغوب ومطلوب ... وسمعت كلام الكبار في رحاب ذكر الله تعالى ... فلمّا تقدّمتُ للقرطاس والقلم

وجدت أن التعليم الرباني في حرم المعارف التي كان يحف بها بيتك قد سبق فضله من الله تعالى ...

شكرا لأستاذي المشرف على بحوثي الأكاديمية (ماجستير ودكتوراه) الأستاذ الدكتور عبد الغني بارة ... سمعت منه أولى كلمات نظريّة التأويل في جامعتنا المميّزة جامعة سطيف 2 ... شكرا أستاذي على كل دقيقة قضيناها حولك... نشهد فعل التأويل والفهم .. في الشعر والسّرد والمعرفة ... قال عبد الغني النابلسي :

كيمياء الهدى أحاديث علمي فاتركوها تشيع بين الممالك.

وسلطان هذه الكيمياء هو الكتاب والسنّة...فهما سرّ السعادة المطلوبة وسرّ المعرفة المرغوبة... نسأل الله السكينة والحكمة وأن يبلّغنا كيمياء الخواص .

ما تجده في كتابي هذا ... هو ما أرشدني الله إليه بفضله وتوفيقه وأعتقد أنّه الحق... وأبتغي به خدمة الإسلام وخدمة لغة القرآن والسنّة ... لغتنا العربيّة ...

أ. بوعافية محمد عبد الرزاق

قسنطينة- الجزائر : 21 رمضان 1439هـ

مدخل :

أعداء المجاز يلبسون قناع الحقيقة

يحبّون الحقيقة فيتّخذونها جارية مبتذلة عندهم، وينفرون من الخيال، يعشقون الواقع ويغرقون بين وقائعه، لا يريدون المجاز، لأنّهم لا يحبّون العبور إلى ضفاف يجدون فيها أفكارا تخالفهم،يقتلون تجلّيات الإبداع في رحم الخلق، طريقهم ظواهر النّصوص مهما تناقضت، يمقتون التأويل، مع أنّه هو العقد الشّرعي الذي يجمع تعارض ظواهر النّصوص، ومنه نفهم أنّ النصوص المتعارضة في ذاكرتهم تعيش في حالة سِفاح ولا شرعيّة معلنة، تكون نتائجها دوما قرارات وأحكاما طائشة تقتل وتشرّد وتغلق آفاق العقل، وتذهب أمن النفوس وتنفّر الأرواح من باب الإسلام، هذا هو عنوان أعداء المجاز.

ماذا يوجد خلف قناع الحقيقة ؟ توجد أوهام مزيّفة ووجوه مشوّهة هي انعكاس لفهم أعوج وسلوك أعرج عيّ في الحيّ انتسابا . تلك كلمات كتبتها منذ زمن لمّا قرأت وأعدت القراءة فوجدت مظلومين قد غلب ظالموهم زورا وبهتانا فعسى أن نصحّح طرق الأخذ ومناهله لنعيد النّظر في هؤلاء الذين ظُلِموا .

يوم أتقن العربيّ المسلم لعبة المجاز فهما وإنتاجا وتأويلا تفوّق في حكم العالم، ويوم فهم العربيّ معنى قوله تعالى لنبيّه محمّد صلى الله عليه وسلّم: { **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**} (البقرة 144)، فهم منها أنّ هذا حكم فقهي يتعلّق بالعبادة واستقبال قبلة شرعها الله لعباده المؤمنين، وكذلك فهم منها أنّ شريعته ليست مثل باقي الشرائع وليست تبعا لأيّ شريعة سابقة، ولا تشترك في الأحكام معها، هي شريعة واحدة متفرّدة وهي الصحيحة وما عداها باطل فلا يجب الاشتراك مع ما سواها من الشرائع الباطلة أو الأخذ عنها، فقبلة المسلم ووجهته حنيفيّة تعتمد على أصل الفطرة الربّانيّة التي خلقه الله عليها، وفهم المسلم العربي السّليقيّ أنّ هذه الوجهة بعد أن يطبّقها في صلاته، عليه تطبيقها في حياته، فلا تكون له وجهة سوى هذه الوجهة، عبادة لله الأحد وخضوع للواحد الحي القيّوم، ودوما قلبه مرتبط بقوم في الحجاز سكناهم يتحرّى سنّتهم ويأخذ من ينابيع علمهم، ألم يكون المسلمون الفاتحون الذين هزموا إمبراطوريّات العالم كذلك ؟ ألم يفتحوا الشام والعراق والسّواد وفارس ومصر والمغرب والأندلس ووجهتهم دوما

هي هذه القبلة لا يرضون بغيرها بدلا، لقد أحسنوا الفهم، فأحسن الله إليهم، لم يأخذوا العبارة القرآنيّة على ظاهرها وأغلقوا أبواب الفهم العميق لحقيقة المطلوب منهم، كانت نفوس الصّحابة رضوان الله عليهم وعقولهم نيّرة قويّة تمتلك آليّات الفهم،فهم القرآن والسّنن، وما تلك الآليات ؟؟ هل كانت فلسفات؟ هل كانت نظريّات ؟ لا هذه ولا تلك .. لقد نزل القرآن والعرب لا يملكون سوى ملكاتهم اللغويّة وآلتهم البلاغيّة، وبذلك تمكّنوا من فهم القرآن وتدبّره على أحسن وجه، ففتحوا العالم وبلّغوا الرّسالة، لقد اتّخذوا إلى النّص معابر/ مجازات فتحوا بها آفاق العقل قبل آفاق البلدان .

{وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} مهما اختلف بكم الزمن وتغيّرت عليكم الأوضاع، فصلاتكم ووجهتكم واحدة معشر المسلمين، ووجهتكم واحدة، وحكمكم واحد، فيها من معنى الولاية والتولّي والتوجّه والوجه، وهكذا أحكم المسلمون حكمهم بمدد من ربّهم على ما فتحوه من البلاد، لأنّ الوجهة واحدة، كانت فتوح في الشام وأخرى في مصر وأخرى في العراق، والوجهة واحدة والقيادة واحدة، وكانت الشّعوب التي دخلت إلى الإسلام مختلفة متناحرة، فكانت وجهتها بعد الإسلام واحدة، وكان لزاما على هؤلاء الفاتحين

الذين فهموا الدلالات العميقة التي تتجاوز الظاهر إلى العمق أن يجمعوا كلمة هؤلاء الأقوام على كلمة الوحدة والإسلام، وأن يعلّموهم أنّ أمّة المسلمين متفرّدة تتولّى قيادة نفسها وفق شريعة لا تحاكي شريعة أخرى ولا تأخذ منها، فللمسلم وجهة يولّي وجهه إليها دوما، ليس للنصارى فيها نصيب ولا لليهود، وكل من يخالفها ليس من الإسلام في شيء، ويقول الشّهيد الأستاذ **سيّد الأدباء وقطب المفكّرين** في معنى هذه الآية التي عاش تحت **ظلالها** :" ثم هو نهى عن التلقي من غير الله ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتحققه في الأرض . نهى عن الهزيمة الداخلية أمام أي قوم آخرين في الأرض . فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هي التي تتدسس في النفس لتقلد هذا المجتمع المعين . والجماعة المسلمة قامت لتكون في مكان القيادة للبشرية؛ فينبغي لها أن تستمد تقاليدها – كما تستمد عقيدتها – من المصدر الذي اختارها للقيادة . . والمسلمون هم الأعلون . وهم الأمة الوسط . وهم خير أمة أخرجت للناس . فمن أين إذن يستمدون تصورهم ومنهجهم؟ ومن أين إذن يستمدون تقاليدهم ونظمهم؟ إلا

يستمدوها من الله فهم سيستمدونها من الأدنى الذي جاءوا ليرفعوه!"[1]

وإنّي لأنظر في سورة يوسف التي نزلت في المرحلة الكيّة، وقبل أن ينتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، فتعلّم صحابته رضوان الله عليهم من السّورة كثيرا من الحقائق التاريخيّة والعبر ومناهج الفهم القويم للقرآن العظيم ؛ خاصة ما تعلّق بحقيقة بني إسرائيل، ولا يخفى أنّ السّورة نزلت في زمن تعرّض فيه الرّسول لمضايقات كثيرة وإعراض مكّة عنه، وكان قوله تعالى :{ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أكبر قاعدة لفهم ما ينزل من وحي السّماء على نبيّ الأمّة والرّحمة، إنّه عربي، وعربي لتعقلوه[2]، ليس على شاكلة أقوام آخرين، بل على شاكلة اللسان العربي، فلا يتم الفهم إلا بالتوسّل باللسان العربي، وما عدّة هذا اللسان ؟ معجم واسع وتركيب متين ومقاصد بلاغيّة محكمة، هكذا كان العربي يفهم الخطاب، وإنّنا لنفهم من هذه السّورة مجازاتها الكبرى، تلك المجازات التي تنطلق من

---

[1] سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق.

[2] قال ابن عجيبة الحسني:"ما نزل القرآن بلسان عربي مبين إلا لنعقل عظمة ربنا ونعرفه، وذلك لا يكون إلا بعد استعمال العقول الصافية، والأفكار المنورة، في الغوص على درر معانيه. فحينئذٍ تطلع على أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وعلى أنوار الصفات، وأسرار الذات"

الرؤيا، فالحلم الذي رآه يوسف عليه السّلام – وإن كان حلما وليس واقعا – إلّا أنّه كان حقّا، بماذا كان حقّا ؟ بالتّأويل، نعم تأويل الرؤيا تحقّقها، وهل يطعن في حقيقة الرؤيا أنّها حلم وليس واقعا ؟ لا لا يطعن فيها مطلقا، ولهذا لا يطعن في الحقيقة أن يتمّ التعبير عنها بمسلك المجاز، لأنّ المجاز لا يساوي الكذب إنّما هو وجه مميّز ذو دلالات للتعبير عن الحقيقة، لقد رأى صاحباه في السّجن رؤية، ليست من الواقع في شيء، ولكنّها حقائق، ولّما حصل التأويل للرّؤيتين ظهرت هذه الحقائق عيانا، إنّ في سورة يوسف تربية عظيمة للمسلمين ولفهمهم، كيف نفهم القرآن ؟ وكيف نعرج إلى حقائقه ؟ هكذا كانت سورة يوسف، ويوسف هو النبي الذي يؤوّل الرؤى، أوتي علم تأويل الرؤى وتعبير المنام،أليست الرؤى مجازات وجسور بين عالم الملك وعالم الملكوت ؟ أليس التأويل والتعبير عنها هو كشف علاقات وتحقيق في تجلّي الحقائق منها؟

إنّ المسلم في زمن الصّحابة والسّلف كان مزوّدا بسليقة اللغة التي كانت تعتبر شريعة قائمة بذاتها، نعم إنّها شريعة اللغة، والإيمان عقد بلاغي، قبل أن يكون عقدا نظريّا فكريّا وجدانيّا، فالبلاغة تصنع الإيمان، ألم يحصل يقين للعرب ممّن سمعوا القرآن أنّه ليس كلام

البشر؟ وعاند من عاند منهم لمصالح اجتماعية واقتصادية قدّر أنّها ستسحب من تحت يده لو تغلّب هذا النبيّ، وإلّا فقد اعترف جمعهم من نبهائهم بأنّه كلام يعلو ولا يعلى، ليس بكلام البشر، ولهذا قبل أن نقرّر أيّ أمر في شأن هذه الشريعة علينا أن نتمرّس في شريعة اللغة، فالشرع الإسلامي القويم بني على شرع لغوي محكم، تولّاه الله بالتربية والرّعاية منذ أن كان العرب في مهد الجزيرة غفلا من أيّ رسالة، فخرجوا مع الإسلام أمّة في لسانها بيانها وقرآنها،، وفي وجدانها و عقلها بلاغتها وشريعتها، وفي يدها سلاحها، لتحرّر الإنسان من سلطة الإنسان، وترجعه إلى عبادة الواحد الأحد، ولا سبيل إلى استعادة هذه الحالة الفذّة الفريدة إلا باستعادة ملكات كانت عند هؤلاء المشرّفين بالدّعوة القائمين عليها، لا نستطيع تمثّل السّلف الصّالح دون أن نتمثّل مستواهم في اللغة والبلاغة، لأنّ مَلَكَتَهُم البلاغيّة البيانيّة هي التي مكّنتهم من فهم القرآن الكريم وتطبيق الشّرع على أحسن وجه، ولا يتمّ ذلك إلا بفهم أهم عناصر هذه البلاغة التي فهموا من خلالها القرآن الكريم والسنّة المطهّرة .

إنّ حالة الفوضى في فهم الشريعة أيّامنا هذه راجعة بالأساس إلى ضعف ملكات علماء الشرع باللغة والبلاغة، وحالات الطّيش الفقهي

تابعة لحالات من الجهل اللغوي والبلاغي، اقرأ مقالة الشّاطبي في علم اللسان العربي إذ يقول : "وبيان تعيّن هذا العلم ما تقدّم في كتاب المقاصد من أنّ الشريعة عربيّة، وإذا كانت عربيّة فلا يفهمها حقّ الفهم إلا من فهم اللغة العربيّة حقّ الفهم، لأنّهما سيّان في النّمط ما عدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئا في فهم العربيّة فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسّطا فهو متوسّط في فهم الشريعة... فلابدّ أن يبلغ في العربيّة مبلغ الأئمّة فيها؛ كالخليل وسيبويه والأخفش والجرمي والمازني ومن سواهم "[1] ثم يذكر إفتاء الجرمي من كتاب سيبويه معلّلا ذلك أنّه كان يتعلّم منه التفتيش عن المعاني والدلالات، وهكذا ارتبطت الشريعة والنّظر في القرآن باللغة وعلومها، ومنتهى علومها عند باب البلاغة، نلمس ذلك في صنيع السكّاكي رحمه الله في مفتاح العلوم عندما جعل علمي البيان والمعاني بعد الصرف والنحو، فالبلاغة قمّة العلوم اللغويّة والبيان اللغوي عند الإنسان، وما دام القرآن الكريم مبينا، فلا مناص من الفحص عن مسالك بيانه وتبيانها للوقوف على إعجازه وتطبيق شرعه الذي لا تستقيم حياة البشر من دونه.

---

[1] **الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، دار ابن الجوزي، ج2، ص : 89.**

ولمّا سمع المؤمنون قوله تعالى في سورة الفتح يوم الحديبية: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} أدركوا أنّهم منصورون بقوّة الله وتأييده لهم، وأنّهم الأعلوْن، وأنّ فتوحهم ستكون بالنّصر، شرط أن يوفوا بعهدهم، فإن نكثوا، فلن يكون نكثا على الله بل على أنفسهم فالله لا يضرّه إعراضهم عن الحق، إنّما سيفوّتون على أنفسهم وحدة وعزّة الإسلام، فتقدّموا إلى الفتوحات، وما أدراك ما الفتوحات؟ إنّها الترجمان العملي للثقة واليقين الذي بذرته آية { **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** } فهموا منها أنّ النصر والقدرة والقوّة قد ساندتهم، كيف لا وهم الذين صدقوا الله في الوعد، فكانت الممالك تتساقط بين أيديهم الواحدة تلو الأخرى، ولم تشهد البشريّة سقوط الإمبراطوريات الكبرى مثلما حصل على يد المسلمين الفاتحين، إنّهم فتحوا القلاع وحرّروا النفوس من عبوديّة غير الله لأنّ عقولهم تحرّرت ونفوسهم تجاوزت الأوضاع البالية، فكانت الفتوحات مجازا/ جسرا كبيرا نحو تغيير العالم، إنّه معراج صناعة أمّة الحقّ خير أمّة أخرجت للنّاس.

إنّ أمّة السّلف الصّالح ما كانت تغطّي الشّمس بالغربال، وتنظر إلى قضايا تبعد عنها بألف كلم وتحرّض إلى الجهاد فيها وتتغاضى عن قضيّة تقربها وتمسّ في أقدس أقداسها (الأقصى)، ونرى العجب في أيّامنا من عقول ما زالت تجادل الجهميّة والمعتزلة، والأقصى تقوم على حمايته نسوة فلسطينيات يحملن مصاحف يبتن عند أبواب الأقصى يمنعن الصهاينة من اقتحامه، ومازال أسود المنابر يردّون على جهم وعلى بشر المريسي ويحذّرون من الرازي والزمخشري وسيّد قطب....، يا أمّةً ...

إنّ الفهم نتاج العقل، ولا نفعّل هذا النتاج إلا بالتحكّم في آليات العلاقات التي تحكم وحداته، إنّها اللغة، وللغّة مظهران، مظهر الحقيقة اللغويّة ومظهر المجاز، وكل حقيقة مطلقة واقعة عيانا أو مستورة عنّا لها هذان المظهران، وقد سبق للإمام ضياء الدين بن الأثير أن قال في فصل الحقيقة والمجاز : " وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم البيان، لا بل هو علم البيان بأجمعه، فإن في تصريف العبارات على الأسلوب المجازي فوائد كثيرة"[1]

[1] ضياء الدين بن الأثير،المثل السائر، المكتبة العصريّة، تح محي الدين عبد الحميد، ج1، ص:74.

فعلم البيان جماعه ولبّه التحكّم في مسالك هذا المجاز، وما المجاز إلا مسلك خاص للتعبير عن الحقائق، ومن ينكر المجاز فإنّ الغرب قد أرغمه على أن يعيش المجاز باستعاراته في حياته اليوميّة. والتحكّم في اللغة فهما وإبداعا هو ما سيصنع المكانة من جديد للفكر العربي وفلسفته .[1]

أ-من الفتوحات الإسلاميّة إلى كرة القدم، عندما تهزم الاستعارة[2] الأمم :

لقد خرج المسلم من معترك الحياة من (ميدان الفتح والنصر) إلى مقاعد المتفرّجين، والأمم تلعب (تقاتل) وهو يتفرّج مشجّعا هذا أو ذاك أو مفتيا بنصرة هذا على ذاك، وعندما يلعب ضدّ إخوانه، فإنّه يستنجد بمدرّب أجنبي (حكومة غربيّة) ويشكو إلى هيئة أجنبيّة، فغالبا ما يتناهشون -للأسف- ويأكلون لحوم بعضهم {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} (الحجرات) إنّ لعبة الجماهير ما هي إلا استعارة كبرى للحرب، حيث أخرجت الإنسان من معترك الحرب

[1] ينظر، طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي.

[2] الاستعارة هنا بالمفهوم المعرفي الذي يقابله جانب من الاستعارة التصريحيّة عندنا بأقسامها المتعدّدة، وليس بالمفهوم الضيّق لكلمة استعارة مثلما نجدها في مدرسة السكّاكي والقزويني رحمهما الله، وكذلك هي الاستعارات الكبرى التي لا تتقيّد فقط بالخطاب الملفوظ، ومن يريد استيعاب هذه النظريّة فعليه بكتب ريتشاردز وأرمسترونغ .

الحقيقيّة إلى معترك مجازي وإذا أردنا تمثيله حسب بنية نسق تصوّري استنادا إلى نسق تصوّري آخر[1] فالمباراة = معركة و يكون التصميم الاستعاري كالآتي:

فريقان من اللاعبين = جيشان من المقاتلين

قائد الفريق = قائد الجيش/ مدرّب الفريق = صاحب خطّة المعركة

الجماهير = الشعوب والأمم التي تقف خلف جيوشها.

الملعب = ميدان القتال/ ضربات الجزاء = المبارزة الفرديّة .

القدم والكرة = اليد والسّلاح/ الكأس أو مكافأة المال = الغنائم والأموال.

الوقت الفاصل أو المقتطع = الهدنة المتّفق عليها.

وفيها أعلام وشعارات وأناشيد وطبول مثلها مثل المعركة تماما وبينهما تناسب، فإذا كانت "جميع الاستعارات إنّما هي إبدالات في المتناسبة "[2] مثلما قال ابن البنّاء المرّاكشي، فإنّ هذه التناسبات تكشف حقيقة لعبة كرة القدم، وطريقة تكيّف العقل البشري وفقها، واليوم

---

[1] ينظر في ذلك أعمال " **Georges Lakoff and Mark Johnson** " في كتبهما: الاستعارات التي تقتل، وكتاب الاستعارات التي نحيا بها، فقد قاما بنقد النظريّة المقارنة الأرسطية في الاستعارة ووسّعاها لتشمل بنيات كبرى مجرّدة وواقعيّة وليست لفظيّة فقط .

[2] ابن البنّاء المرّاكشي، الروض المريع في صناعة البديع، تح : رضوان بنشقرون، ص : **115**.

يُقاد الرأي العام من خلال جلد منفوخ، إنّها معركة كل الدّول التي لا تستطيع صناعة نموذج حكيم رشيد في سياسة شعوبها .وقد كانت كرة القدم بديلا عن تطاحن الشعوب الفعلي، ونحن اليوم نشهد عودة تطاحن الشعوب في ملاعب الكرة.

لقد أثار في نفسي تقدّم الدراسات الغربيّة في الاستعارة غيرة عارمة على تراثنا البلاغي الذي مارس أسلافنا فيه هذا الفهم، فكان العالم بين أيدينا منحة ربّانيّة، نسوسه بالأمن والكرامة، ولمّا انسحبنا من ساحة الفهم، وأغلقنا النص وأغلقنا عقولنا عليه أنتجنا نماذج بشريّة ستظلّ عقبات في وجه دعوتنا، وإنّي والله أشعر بالغيظ عندما أسمع مؤمنا غافلا عمّا يدور حوله، يحذّر من المجاز ويحذّر من الفهم العميق المستند إلى دلائل اللغة وبلاغتها، وينفّر من نماذج بعينها لفهم القرآن الكريم، وبعض من الغافلين يلوّح إلى أنّ الأمم نجحوا في الفيزياء والرياضيات والذرّة والطب، وليس بالتعمّق في علم الكلام والبلاغة!! ولم يعلم أنّ أوروبا خاضت معارك العقل واللغة والإلهيات قبل أن تحقّق تطوّرها التقني، لولا سبينوزا الذي استفاد من ابن رشد ولولا الاكويني الذي قرأ ابن سينا وابن رشد لما وصل العقل الأوروبي إلى فيزياء الذرّة اليوم، ولولا أسئلة المعتزلة في الجزء والطفرة

والطاقة والقدرة لما وصل جابر والخوارزمي وابن سينا والرازي إلى ما وصلوا إليه، إنّما هذه معارف إنسانيّة تنبع من أعماق العقل والوجدان مترابطة أشدّ ما يكون الترابط، بعض علاقاتها يوفّق الله لكشفه وبعضها الآخر يظل بعيدا عنّا نمارسه، ولا نشعر به.

الدراسات الغربيّة تدرس الخطابات والاستعارات الواقعة فيها، لتوجّه الرأي العالم الداخلي والخارجي، إنّها تصنع الأفكار، ونحن أمامنا القرآن العظيم، أصحّ كتاب على وجه الأرض وفي الكون كلّه، تبيان لكل شيء، وبين أيدينا سنّة نبيّنا محمّد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، فلماذا لا نجتهد في فهمها؟ ولماذا لا ننكبّ على آليّات فهمها؟ ما آليات الفهم؟ في مقدّمتها علوم اللغة وعلى رأسها البلاغة واللغة منها حقيقي ومنها مجازي، والمجاز هو المقصور لأنّ فيه طاقات تمكّن من صلاحيّة العبارة لكلّ زمان ومكان، وشريعتنا هي الأخرى صالحة لكل زمان ومكان.

لست أدعو إلى قبول كل تأويل في القرآن الكريم، بل إنّ التأويل ضابطه اللغة وسنن العرب في كلامها، والعربيّة تتيح الفرصة لكل ناظر بعقل سليم وغاية صحيحة تمكّنه من الظّفر بوجهة من وجهات الحق، وهنا تسبق البحث ترتيبات أخلاقيّة، ولغتنا بأدبها الرفيه فيها

من الأخلاق والقيم ما يغني أّمتنا، إنّ العرب تلقّوا الإسلام، لأنّ القيم كانت قد غرست في وجدانهم، وهذا شعرهم، وقد كان الجاهلي المشرك يستنكف أن يقال عنه كذّاب، ولهذا كانت تربية الأحداث على شعر الجاهليين لأنّه يطلعهم على أساليب العرب وعلى قيمهم الأخلاقيّة، وإلا كيف نفسّر تربية الأطفال وتعليمهم المعلّقات وهم في سن مبكّرة، ولكنّنا عندما نسمع بصلاح الدين الأيوبي، وموسى بن نصير، وهارون الرّشيد وغيرهم من أفذاذ الأمّة ندرك حكمة التعليم عند سلفنا ومن خلفهم إلى عهد ليس بالبعيد عنّا.

ب–صدّام حسين قاتلته استعارة !!

إهداء صغير بخط صغير :" إلى ذلك الأستاذ الذي تعجّب من تأليفي للكتب .. لأنّه يحسب أنّ كلّ سائر في طريق العلم على شاكلته يعيش على فتات شهاداته .. ويدخل على طلبته ليملي عليهم كلمات يتهرّب من شرحها.. إليك أوجّه استعارتي .. عسى أن تستعر نار المروءة فيك .. فتعدل عمّا أنت فيه من كسل .. وتعرض أفكارك على النّاس .. عسى أن تكون عندك أفكار تعرضها .. ولا أنكر التشجيع الذي قابلني به كثير من أساتذتي الفضلاء فلهم الشكر على ذلك"

لقد كان حسين رحمه الله صدّام العرب، حتى اصطدم باستعارة أمريكيّة أحالت بلاد العراق إلى كرب وبلاء من نوع جديد، إنّها العراق عراق بابل وعراق بغداد وسامرّاء والبصرة والكوفة، تاريخ الحجّاج وتاريخ هارون الرّشيد وجدّه المنصور، عراق شارع المتنبّي، وأحاديث الكرخ الجميلة، إنّها ذكرى الحسين رضي الله عنه وجعفر الصّادق إمام آل البيت رضوان الله عليهم، هكذا رأت الولايات المتّحدة العراق، وكلّ حركة تخرج من العراق فيها مظهر قوّة تشكّل خطرا على الخريطة التي تريدها ثابتة مثلما رسمت لها، فكان لابدّ من خطّة تجعل من هذا البلد خطرا عالميّا فتضربه في مقتل وعلى مرأى ومسمع من العالم، بل وبموافقة كباره.

إنّ الخطاب الذي بدأت تفرزه دوائر الحكومة الأمريكيّة في حرب الخليج سنة 1990م، كلّه قائم على الاستعارة، بهدف إقناع الرأي العام بشرعيّة التحرّك ضدّ صدّام حسين، يقول في ذلك جورج لايكوف Georges Lakoffفي كتابه المميّز "حرب الخليج أو الاستعارات التي تقتل" :"الاستعارة قد تقتل، إنّ الخطاب الذي دفعنا إلى الانخراط في حرب الخليج يمثّل نظرة استعاريّة شاملة، لقد رأى كاتب الدّولة جيمس بيكر صدّاما جاثما على حبل حياة اقتصادنا، وتصوّره بوش ماسكا بخناق اقتصادنا، أمّا الجنرال شوارسكوف فوصف احتلال الكويت بكونه اغتصابا متصاعدا "[1].

إنّ هذه العبارات تصوّر وحشا ومغتصبا وظالما ينبغي ردعه، واستعار الخطاب الأمريكي في حربه ضدّ العراق بدائل لفظيّة من مثل: اعتبار الحرب لعبة رياضيّة، واعتبار الأمر صفقة اقتصاديّة، ولكن استبعد من الخطاب الأمريكي كل إشارة إلى واقع الضّحايا وإلى الواقع السياسي الأصلي في تلك المنطقة، وصوّرت الكويت على أنّها ضحيّة والضحيّة في العرف العام براء، "ولكنّ الكويت لا يمكن أن تكون في عيون العراقيين ذلك البريء الغر، أفلست الحرب ضد إيران

[1] جورج لا يكوف، الاستعارات التي تقتل، تر عبد المجيد جحفة وعبد الإله سليم، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2005م، ص: 19.

العراقَ، والعراق رأىٰ أنّه دخل الحرب جزئيا من أجل الكويت والسّعوديّة التي يدعم فيها الشيعة الثورة الإسلاميّة الخمينيّة، وافق الكويت علىٰ المساهمة في تمويل هذه الحرب بضرورة تسديد العراق لهذه المساهمة التي اعتبرت قرضا، واستثمر الكويتيون مئات الملايير في أوروبا وأمريكا واليابان "[1] بل علىٰ العكس زادوا في إنتاج النّفط ممّا أدّىٰ إلىٰ ضرر العراق بانخفاض أسعاره، وهذا لا يبرّر جرائم العراق أو يجعلها شرعيّة بل من الضّروري عرض الواقعة التاريخيّة بكل ملابساتها، فالعراق ومن وقف إلىٰ جانبه لم يروا الكويت بريئا.

ومن الجانب الأمريكي كان يعرض الكويت وغالب الدّول الضعيفة علىٰ أنّها "مغتصبة" أي في صورة الأنثىٰ التي ينتهك عرضها شرّير لا يراعي الحرمات، إذن فعلىٰ القويّ أن يتحرّك ليتصرّف وفق ما يمليه عليه الضمير الأخلاقي وواجب العدل باعتباره قويّا، فهو شرطي العالم، وهناك صورة (استعارة) عملت الولايات المتّحدة علىٰ ترويجها إعلاميّا في الدّاخل والخارج، عندما صوّرت العراق = صدّام، فاستعارة الدّولة والوطن باعتباره شخصا هي استعارة مغالطة، وعندما يُضرب العراق سيُضرب صدّام، متغافلين كليّا عن قضيّة أنّ

[1] المرجع نفسه، ص: 34.

في هذا البلد أبرياء لا ينبغي أخذهم بجريرة قرار فردي من رأس السّلطة، هذه السّلطة التي ربّما لا تمثّل حقيقة الوعي السياسي في ذلك البلد وأهله، وهكذا ضُرِب العراق باعتباره صدام حسين وقُتل الأبرياء وسفكت الدّماء، وأميت الزّرع ودخل العراق دوّامة كبرى، وكلّ هذا باستعارة في خطاب سياسي ليقنع الرأي العالمي أنّ فعله مبرّر أخلاقيا بعيدا عن المصالح الاقتصاديّة والحربيّة الحقيقيّة .

إنّ هذه الدّراسة الغربيّة التي عرضت أفكارها، والتي تتوسّل بمنهجيّة الاستعارة من منطق البلاغة المعرفيّة أو العلم المعرفي science cognitive تحدث ثورة في عالم تحليل الخطاب وفهم السّلوك الإنسانيّ، ومن الغريب أن تبقى البلاغة العربيّة حبيسة "وإذا المنايا أنشبت أظفارها" ولا تكون منهجا لمعرفة العالم وفهم الخطابات، مع ما تملكه البلاغة العربيّة من مدارس واتّجاهات، بل وما تملكه من طاقات تمكّنها من إنتاج الخطابات، نحن اليوم لا نملك خطيبا سياسيّا واحدا يلهب الجماهير (كان على حق أو باطل)، اختفى زمن الإبراهيمي وحسن البنّا و عبد الحميد كشك وهواري بومدين والحسن الثّاني وغيرهم ممّن كانوا يتصدّرون للخطابة والإقناع فيسير الشّارع على بلاغة قولهم، قد غدت الخطابات مائعة، ولا روح فيها ومكرّرة وضحلة، بسبب أنّ الملكات اللغويّة معطّلة، في حين أنّ الخطابة

Rhétorique في العرف المدرسي الغربي هي من أهم وسائل المترشّح السياسي وهي أداته البلاغيّة بجانب المناظرة، فلا عجب أن تزدهر الدراسات البلاغيّة في أمم تقدّر الكلمة، ونحن في أمّة سلطانها العبارة والبلاغة والبيان، ولكن يبدو أنّها استعجمت فغدت لا تفهم هذه الكلمة.

وأحداث 11سبتمبر ليست بالبعيدة عنّا، وقد حلّلها بلاغيّو الغرب على ضوء نظريّة الاستعارة، فضرب البرجين ومراكز الدّولة كان اعتداءا على أسرة أمريكا، وترويعا لها، ولهذا نلاحظ أنّ إعلان بوش للحرب كان من مكتب وضعت خلفه صور لعائلته، فهو سيدافع عن العائلة باعتباره الأب الحامي لها، والذي تعرّض لظلم شنيع في حق أبنائه، وراح بوش يستعير من بلاغة الكلام، فاعتبر المعتدين جبناء ودعاهم إلى الخروج من جحورهم، فهم قوارض، وقال رامسفيلد بأنّ على الدولة تجفيف المستنقعات التي يعيشون فيها فكأنّهم مخلوقات مستنقعات، وهكذا انبنى تصوّر الجماهير على أنّ :

الولايات المتّحدة = فوق وضربت في تفوّقها الاقتصادي والعلمي والحضاري.

الأعداء= تحت فهم جبناء وفي الجحور والمستنقعات فهم حيوانات ينبغي إبادتهم.

وهكذا بدأت الحرب الفعليّة، حرب الكرامة، حرب الأب لتأمين عائلته، حرب ستتّجه إلى حيوانات ينبغي إبادتها.

هكذا يسْكَر العقل باستعارات توجّه حياته ورأيه دون رقابة أو أدنى فهم، وللأسف نحن اليوم كذلك نمرض باستعارات ونعيش بها، ونوّجه من خلالها، ولكن دون وعي منّا، ألا يدعونا هذا إلى تجديد ترسانتنا البلاغيّة وشحذها لتحليل الخطابات التي نتلقّاها ونفحصها، فهناك استعارات سامّة تقتل، وهناك أخرى تشعل الفتن بين الأمم .

لقد فهم السّلف حقيقة الخطاب وكانت بين أيديهم بلاغة تمكّنهم من توجيه الفهم والبيان، وكان عمدة البلاغة نحو يضبط منطق الفكر، واليوم نحن مع إنسان عربي مسلم، ولكنّه لا يجيد العربيّة ويأخذ قليلا من الأعجميّات، فيمزج ويشكّل لسانا مشوّها لا يسمح بعرض الواقع ولا يسمح باجتياز معارج الفهم وتحصيل آليات التأويل المجازي مثلما كان عليه الوضع قبل قرون.

كيف نريد من قاضٍ أن يعرف الحقّ ولغته لا تقيم قسطاس الحق بين كلماتها ؟ كيف نريد من مسلم أن يستقيم على شرع ربّه وهو يقابل خطاب ربّه بجهل تام يقرأ ولا يقرأ، يقرأ بالمرور بين السطور، ولكنّه معطّل الفهم.

اللغة سبيل إلى الفهم، والبلاغة آلته، والنحو خادم هذه البلاغة وكلّ من يزهّد في النّحو أو يلمزه فهو حاقد لا يؤمن جانبه، إنّ افتقاد المسلمين لمنطق علم النّحو في لسانهم في بدايات العصر العبّاسي اتّفق مع ظهور الزّندقة والأفكار الهدّامة، ودوما أسأل : لماذا لم تظهر من قبل؟ لأنّ السليقة اللغويّة والبلاغيّة كانت على نهج قويم (النّحو هو الطّريق).

لا سبيل لنا إلى فهم أنفسنا إلا بقراءة تراثنا الأدبي واللغوي منه خاصّة، ثم نقرأ في ضوئه ما أنتجه الغرب، فنفهم أين نحن، وأين نسير، وما واجبنا اتّجاه أجيال قادمة، وإنّ إعاقة الفهم تتأتّى من إعاقة في اللغة، وديننا مبني على شريعة لغويّة بيانيّة، إنّها خطّة محكمة ليتعايش النّقل مع العقل بتوسّط البلاغة وعلوم اللغة وآلاتها.

وقد عرضت لحالة بلاغيّة في الخطاب السياسي عند الغرب، وأردت إبراز طريقة تشكيل الوعي ببلاغة الاستعارة، لنعرف جيّدا موقع مسالك الخطاب من العقل الإنساني، لألج بعد هذا موضوع المجاز، فقد طال بي الحديث في حواشيه،وكلّ من يحارب المجاز في الفهم والإعجاز والبلاغة هو يحارب لصالح جهات لا نعلم عنها شيئا فتأخذنا الريبة من حاله، لأنّ المجاز معراج الفهم وممارسة كيمياء الإنسان، لا أفهم الإنسان إلا كائنا يفهم المجاز، ويؤوّل العبارة .

الفصل الأول

ما المجاز ؟ وهل هو نقيض الحقيقة؟

1- المجاز لغة واصطلاحا:

أ-لغة:

جاء في معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس (تـ 395هـ) – وهو من مثبتي وقوع المجاز في اللغة والقرآن – أنّ " الجيم والواو، والزاء أصلان : أحدهما : قطع الشيء والآخر: وسط الشيء .. والأصل الآخر جزت الموضع: سرت فيه، وأجزته خلّفته وقطعته "(معجم مقاييس اللغة مادة ج.و.ز)

وقال ابن منظور (تـ 711هـ) في لسان العرب :" جُزت الطريق وجاز الموضع سار فيه وسلكه .. والمجاز والمجازة الموضع .. وتجوّز في كلامه أي تكلّم بالمجاز "(لسان العرب مادة :جوز)

فمن ناحية اللغة نجد أنّ المجاز هو الموضع الذي يقطع، وجاز فلان الشيء أي قطعه مثلما ذكر الأصمعي، فالأصل في المجاز القطع والسلوك من موضع إلى موضع أي اجتيازه، وسنجد للأصل اللغوي علاقة متينة بالمعاني التي سيخرج إليها الاصطلاح في مختلف التوجهات التي سيسلكها مصطلح المجاز في اللغة العربية على مستوى اللغة، البلاغة والعقيدة، وحتى مجالات أخرى كالتفسير وأصول الفقه في جانب بحثه عن العبارة اللغويّة ودلالاتها.

ب- اصطلاحا :

بدأ مصطلح المجاز عند أبي عبيدة معمر بن المثنّى التّيمي[1] (تـ210هـ) في كتابه مجاز القرآن، ومعنى كلمة المجاز عنده كما يذكر ذلك محمّد فؤاد سزكين:" عبارة عن الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى أعم بطبيعة الحال من المعنى الذي حدّده له علماء البلاغة لكلمة المجاز فيما بعد " (مجاز القرآن ص 19) فأبو عبيدة جعل من كلمة مجاز مرادفا للتفسير، والمعنى، والتأويل، والغريب...، ويجتمع معناها على الطرق والأساليب اللغوية الممكنة التي اتخذها القرآن الكريم للتعبير عن مقاصده؛ من تقديم،وتأخير، وحذف، واختصار، وغيرها من الطرق التعبيرية، والعمري قام بعملية حصر لأشكال المجاز عند أبي عبيدة،فوجدها تتركز في أشكال خمس، يقول في ذلك: "بعد عملية استقصاء للأمثلة الدالة (بغض النظر عن الشروح المعجمية عن طريق المرادف أو التفسير) بدا لنا أن إشكالات المجاز عند أبي عبيدة تندرج في الخانات التالية:

1-تداخل الضمائر وتبادلها المواقع .

---

[1] يكفي أبا عبيدة فضلا أنّ الجاحظ قال فيه :" لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة "

2-اختلاف أوجه الإعراب والقراءات .

3-استعمال اللفظ في غير موقعه المتوقع ومخالفة ظاهر القول .

4-الزيادة والنقصان في تركيب الكلام .

5-النقل والإلحاق الدلالي.(محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها).

وتجب الإشارة إلى رأي غفلت عنه طائفة منكري المجاز، وهي أن لا علاقة بين المجاز عند أبي عبيدة وابن قتيبة (ت 276هـ) وبين الكذب، فيقول ابن قتيبة :" إذ لو كان المجاز كذبا وكلّ فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا، كان أكثر كلامنا فاسدا. لأنّا نقول : نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل، ورخص السعر" (ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن).

ونجد ابن قتيبة يقرر بأن معرفة فضل القرآن أي بدائعه، وتفوقه على ما سبقه من النصوص، إنما يكون بمعرفة السابق من بديع الكلام عند العرب، وفهم طرقهم وأساليبهم، يقول:"وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه،وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب وما خص به لغتها دون جميع اللغات " من أجل بيان فضيلة كلام ما ينبغي النظر إلى ماسبقه وخبرة المتلقي تلعب دورا مهما .

فقد رد ابن قتيبة شبه المنكرين لانسجام القرآن الكريم فبين مواضع الاتصال بين آياته،والفوارق الدقيقة بين معانيه وتحدث عن مفهوم المجاز وعرفه بقوله:"وللعرب المجازات في الكلام،ومعناها طرق القول ومآخذه" ثم اعتمد عليها في بيان فضل القرآن على سائر الكلام، وقد خطا خطوة مهمة في الرد على الطاعنين على القرآن بالمجاز بقوله:"وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز فإنهم زعموا أنه كذب؛لأن الجدار لا يريد، والقرية لا تقصم. وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم، ولو كان المجاز كذبا، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا، كان أكثر كلامنا فاسدا"

وهذه خطوة في تبرير ضرورة المجاز سنجد أثرها في أكبر المشاريع البلاغية اللاحقة،فابن قتيبة يصرح بضرورة التفريق بين المجاز والكذب،لأن معيار الكذب والصدق،معيار الواقع ومطابقته،أما المجاز فهو عدول في اللغة ليس بالضرورة أن ينتهك حرمة الحقيقة في الواقع .

بل إنّ المجازات الواقعة في القرآن الكريم والتي تتصل اتصالا مباشرا بالاعتقاد الخاص، إدخالها باب المجاز لايعني ضرورة أنّها في باب الكذب – ورأينا أنّ المنهج المعرفي الحق والعلم الحقيقي يتوقّف

عند تلك الآيات الخاصة بالصفات وما يتعلّق بالله تعالىٰ وأفعاله، ولا يجاوزها فهي تجل عن التعليق والتحليل لأنّ لغتها بلغت مبلغا عظيما لا تطيقه العقول-، فالمجازات واقعة في اللغة ولا تعني أنّها تضاد الحقيقة وإن وقع تعارض زائف لمن لم يحقق فبينها وبين الواقع ليس إلا، إذ لا نجد في الواقع شمسا تبتسم بنظرة سطحيّة مباشرة، ولكن الحقيقة تثبت ذلك فللشمس ابتسامة مادامت دافئة وتنشر في الأجواء فرحا وحبورا وتبث - بفضل الله- روحا حيويّة في كل ركن تطاله عيونها.

أمّا الجاحظ المعتزلي (ت 255هـ) – رحمه الله - ذلك العقل الفذّ الذي عزّ مثله في البحث والتنقيب وإجلال نعمة العقل التي أيّد الله بها عباده فقد أشار إلىٰ المجاز في كتابه الحيوان إذ يقول : " ويروىٰ عن النبي صلىٰ الله عليه وسلّم أنّه قال : نعمت العمّةُ لكم النّخلة خلقت من فضلة طينة آدم " وهذا الكلام صحيح لا يعيبه إلا من لا يعرف مجاز الكلام " (الحيوان ج1 ص : 275) فالمجاز جنّة تقي عقل صاحبها من تكذيب قول الرسول صلىٰ الله عليه وسلّم، وهؤلاء الأفذاذ مع ما يمكن أخذه علىٰ عقائدهم فإنّهم تصدّوا لهجمات شرسة من طرف الزنادقة ما كان المحدّثون ليستطيعوا الوقوف ضدّها دون دليل عقل

لولا تيّار الاعتزال، وهذا من باب إحقاق حق لأهله مع اختلافنا معهم في مسائل جوهرية من العقيدة، ولكن تراثهم يأبى إلا الحديث عنهم وعن مآثرهم في دفع حضارة المسلمين في زمن سادت هذه الحضارة فيه العالم بأكمله وكان الحديث بالعربية يرفع صاحبه إلى مصاف المفكّرين والمثقفين الكبار .

ونجد عند عبد الله بن المعتز (تـ296هـ) الاستعارة باعتبارها الباب الأول من البديع وهي :" استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيئ قد عرف بها مثل أمّ الكتاب ومثل جناح الذل " (البديع، ص 18 دار صادر) ويذكر الآيات القرآنية التي تتوفّر على الاستعارة من مثل قوله تعالى :(**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ**) (آل عمران :7) **وقال تعالى: (وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ) (الاسراء : 24)**

وأبو الفتح بن جني رحمه الله (تـ 392هـ) فقد جعل من المجاز أحد خصائص العربية الكبرى، وهو من مظاهر شجاعتها الفذّة ومن بين ما تتميّز به عن بقيّة اللغات، ويقول في تعريف الحقيقة و المجاز :" الحقيقة ما أقرّ على أصل وضعه في اللغة والمجاز ما كان بضدّ ذلك ، وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة وهي: الاتساع

والتوكيد والتشبيه. فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة. ... وكذلك قول الله سبحانه: {وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا} (سورة الأنبياء 75) هذا هو مجازاً وفيه الأوصاف الثلاثة. أما السعة فلأنه كأنه زاد في أسماء الجهات والمحال اسمًا هو الرحمة. وأما التشبيه فلأنه شبه4 الرحمة –وإن لم يصح دخولها– بما يجوز دخوله؛ فلذلك وضعها موضعه. وأما التوكيد فلأنه أخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر؛ وهذا تعال بالغرض، وتفخيم منه؛ إذ صير إلى حيز ما يشاهد ويلمس ويعاين." (الخصائص، ص : 419 دار الحديث)

ويقول ابن فارس صاحب المجمل والمقاييس :" نقول في معنى الحقيقة والمجاز: إن "الحقيقة" من قولنا: "حَقَّ الشيء" إذا وجب. واشتقاقه من الشيء المحقَّق وهو المُحْكَم، تقول: ثوب محقَّق النَّسْج أي مُحْكَمُه. قال الشاعر:

تَسرْبلْ جِلدَ وجهِ أبيك إنّا ... كَفيناكَ المحقَّقَةَ الرِّقاقا

وأمّا "المجاز" فمأخوذ من "جازَ، يَجُوزُ" إذا استنَّ ماضياً تقول: "جاز بنا فلان. وجازَ علينا فارِس" هذا هو الأصل. ثم تقول: "يجوز أن تفعلَ كذا" أي: يَنْفُذ ولا يُرَدُّ ولا يُمْنَع. وتقول: "عندنا دراهم وَضَح وازِنَة وأخرى تَجُوزُ جَوَازَ الوازِنَة" أي: إن هذه وإن لم تكن

وازِنة فهي تجوز "مجازَها" وجوازها لِقُربِها منها. فهذا تأويل قولنا: "مجاز" أي: إن الكلام الحقيقيّ يَمْضي لِسَنَنَهِ لا يُعْتَرض عليه،...ومن هذا في كتاب الله جل ثناؤه: {سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} فهذا استعارة."
(الصاحبي في فقه اللغة، ص 150 دار الكتب العلمية)

ويبدو أنّ ابن فارس لم يفرق بين أنواع المجاز فالدّرس البلاغي لم يستو بعد على القواعد والهيكل المنهجي التنظيري الذي يتيح له عرض الفروقات، فيقول في باب الإعارة :" العرب تعير الشيء ما ليس له، فيقولون : مرّ بين سمع الأرض وبصرها، ويقول قائلهم :

كذلك فعله والناس طرّا   بكفّ الدّهر تقتلهم ضروبا

فجعل للدّهر كفّا." وابن فارس يعدّد هذه الفنون المجازية من إعارة وكناية ليبيّن اختصاص العربية بها، وأنّها من سنن كلام العرب، وأنّ القرآن لن يخرج عن سنن كلام العرب بل جاء عليها وفاقها بعجيب نظم وفرادة مسلك وجلال أسلوب، دفعت العرب للإيمان به، ولم يعاندوه إلا لأسباب سياسية واجتماعية وحتى اقتصادية، ولا علاقة لها بصدق حجّة البيان القرآن إعجاز نظم وبلاغة أسلوب، بل شهدوا هم أنفسهم على بلاغته وحلاوة نظمه وعلوّه.

ويقف عبد القاهر الجرجاني (تــ471هــ) – رحمة الله عليه – ليقول كلمته عن المجاز فيعرّفه بقوله: "كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول " (أسرار البلاغة ص :351، دار المدني)، فالمجاز عموما هو كل عبارة نقلت فيها الكلمة عن وضعها ودلالتها الأولى وبذلك تعمل على تجاوز المعنى الأول وتثبت مقصود الثاني دون كذب، فالمجاز وقع في اللغة لإبانة المقصود ليس غير، وانظر إلى الجرجاني رحمه الله كيف يستفيد من معنى المجاز ليذهب إلى تنزيه ذات الله تعالى في الذكر الحكيم وهو يقول : " فأمَّا ما تكون اليد فيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثَل دون التصريح، حتى ترى كثيراً من الناس يُطلق القول إنها بمعنى القدرة ويُجريها مجَرَى اللفظ يقع لمعنيين، فكقوله تعالى: **"وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ"** **"الزمر: 67"**، تراهم يُطلقون اليمين بمعنى القدرة، ويصِلون إليه قولَ الشمّاخ:

إذَا مَا رَايةٌ رُفِعَتْ لمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرابةُ باليمينِ

كما فعل أبو العباس في الكامل، فإنه أنشد البيت ثم قال: قال أصحاب المعاني معناه بالقوة، وقالُوا مِثّل ذلك في قوله تعالى: **"وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه "**، وهذا منهم تفسيرٌ على الجملة، وقصدٌ

إلى نَفْيِ الجارحة بسرعةٍ، خوفاً على السامع من خَطَراتٍ تقع للجُهَّال وأهلِ التشبيه جلّ اللهّ وتعالى عن شبه المخلوقين ولم يقصدوا إلى بيان الطريقة والجهة التي منها يُحصَل على القُدرة والقوة، وإذا تأمّلت علمت أنه على طريقة المَثَل، وكما أنّا نعلم في صَدْر هذه الآية وهو قوله عز وجل: "**وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَة** " "الزمر: 67"، أن محصول المعنى على القدرة، ثم لا نستجيز أن نجعل القبضةَ اسماً للقدرة، بل نَصير إلى القدرة من طريق التأويل والمَثَل، فنقول إنّ المعنى واللهّ أعلم أن مَثَل الأرض في تصرُّفها تحت أمر اللهّ وقدرته، وأنه لا يشذّ شيءٌ مما فيها من سلطانه عزّ وجلّ، مَثَلُ الشيء يكون في قبضة الآخذِ له مِنّاً والجامع يده عليه، كذلك حقُّنا أن نسلك بقوله تعالى: "**مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** " هذا المسلَك، فكأنّ المعنى - واللهّ أعلم - أنه عزّ وجلّ يخلق فيها صفةَ الطيّ حتى تُرى كالكتاب المطويِّ بيمين الواحد منكم، وخصَّ اليمين لتكون أعلى وأفخمَ للمثل."

هكذا يتمكّن من ردّ شبهة المجسّمة والمشبّهة، بإثبات ما يجب إثباته لله تعالى مع فهم المقصود بتأويل إجمالي لا يذهب عقل السامع بخطرات تقع للجهّال وأهل التشبيه .

وعبد القاهر الجرجاني رحمه الله تعالىٰ هو أوّل بلاغي يصرّح بالفرق بين مجازين أحدهما واقع في اللغة وآخر واقع في المعنىٰ والمعقول، ومنه أخذ السكّاكي ومن جاء بعده النظريّة وجعلوا المجاز عقليا واقعا في الإسناد، ولغويا خاصا بالعبارة اللغوية تندرج ضمنه الاستعارات والمجاز المرسل.

ويقول الشريف الجرجاني الحنفي الأشعري (تـ 816هـ) في كتابه التعريفات :"المجاز: اسم لما أريد به غير ما وضع له لمناسبة بينهما، كتسمية الشجاع: أسدا وهو مفعل بمعنىٰ فاعل، من: جاز، إذا تعدىٰ، كالمولىٰ، بمعنىٰ: الوالي؛ سمي به لأنه متعدٍّ من محل الحقيقة إلىٰ محل المجاز، قوله: "لمناسبة بينهما" احترز به عما استعمل في غير ما وضع له لا لمناسبة؛ فإن ذلك لا يسمىٰ مجازًا بل كان مرتجلًا أو خطأً " (التعريفات ص: 318) .

فالمجاز هو استعمال الاسم في غير ما وضع له في الأصل، كلفظ الأسد فهو غير موضوع للرجل، ولكن نستعمله لملاحظة العلاقة بينهما وهي الشجاعة، وهي التي تمنع من إرادة مدلول العبارة حقيقة، وهنا نجد أنّ المجاز يتجاوز العلاقات الدلالية والقواعد المعنوية

العادية ليبني المستوى الجمالي الأسلوبي الذي يرفع الخطاب من العادة إلى أبواب الشعريّة والإعجاز .

ويقول أمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي (تـ 745هـ) :" ما أفاد معنى غير مصطلح عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب لعلاقة بين الأول والثاني. ولنفسّر هذه القيود، فقولنا:«ما أفاد معنى» عامّ في الحقيقة والمجاز، لأن كل واحد منهما دالّ على معنى، وقولنا «غير مصطلح عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب» يفصله عن الحقيقة، لأنا إذا قلنا: أسد، ونريد به الرجل الشجاع، فإنه مجاز لأنه أفاد معنى غير مصطلح عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب، والخطاب إنما هو خطاب أهل اللغة، وهو غير مفيد لما وضع له أوّلا، فإنه وضع أولا بإزاء حقيقة الحيوان المخصوص، وقولنا لعلاقة بينهما لأنه لولا توهّم كون الرجل بمنزلة الأسد في الشجاعة، لم يكن إطلاق اللفظ عليه مجازا، بل كان وضعا مستقلّا، فلهذا لم يكن بدّ من ذكر هذا القيد. " (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ص 61)

وهذا من أحسن ما حدّ به المجاز عند العلماء، فالاهتمام بالعلاقة المصحّحة من توهّم غير المراد هي التي تجعل المجاز لا يشوّه الحقيقة

بل يعرضها بأبلغ صورة، وفي أحسن أسلوب وتصل إلى غاية المقصود من الدلالة دون حيف .

2-. المجاز باعتبار اللغة وعلاقات الخطاب :

أ-المقاصد الأولى : المجاز لغة تنسجم ضمنها علاقات :

أوّل ما يصادفنا من أنواع المجاز ذلك المفهوم الواسع الذي مثّله أبو عبيدة في مجاز القرآن، وكذلك ما كان يعبّر عنه سيبويه (تـــ 180هـ) رحمه الله بالتوسّع والضرورة، ونجد فيه قربا عظيما من المجاز الذي سنجده ماثلا عند الجرجاني والسكاكي والأفذاذ الذين جاؤوا بعدهم، فيقول سيبويه في الكتاب : "ومما جاء على اتّساع الكلام والاختصارِ قوله تعالى جدّه: " **واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها** " (يوسف 82) إنّما يريد: أهلَ القرية، فاختصر، وعمل الفعل في القرية كما كان عاملاً في الأهل لو كان هاهنا. ومثله: " **بل مكر الليل والنهار** "(سبأ 33)، وإنّما المعنى: بل مكر كان في الليل والنهار. وقال عزّ وجلّ: " **ولكن البر من آمن بالله** "(البقرة 177)، وإنّما هو: ولكنّ البِرَّ برُّ من آمن بالله واليوم الآخِر. ومثله في الاتّساع قولُه عزّ وجلّ :"**وَمَثَلُ الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً** "(البقرة 171)، وإنَّما شُبّهوا بالمنعوق به. وإنَّما المعنى:

مَثَلُكم ومَثَلُ الذين كفروا كمثل الناعِق والمنعوقِ به الذئ لا يَسمع. ولكنه جاء على سعة الكلام والإِيجاز لعلم المخاطَب بالمعنىٰ."(الكتاب، ج1، ص : 212، مكتبة الخانجي)، وقد رأينا عند ابن جني كيف أنّ المجاز يحقق الاتساع والتشبيه وكذلك التوكيد، وسيبويه صريح في تفسيره لآية " واسأل القرية" بأنّ المقصود أهلها فالمجاز واقع فيها من باب العدول عن الحالّ إلى المحلّ وهو يعتمد على الحذف، وليس من الكذب في شيء، فاسأل القرية أبلغ من اسأل أهل القرية، فالمجاز يؤدّي المعنى أبلغ من الحقيقة في اللغة .

وقريب من هذا النوع ما تحدّث عنه إبراهيم عبد القادر المازني – رحمه الله – في حصاد الهشيم، لمّا قسّم المجاز إلى لفظي وشعري فقال: " فأمّا اللفظي فذلك الذي ينقل فيه اللفظ إلى أشباه ما وضع له كالاشراق مثلا يستعمل للشمس والنار والوجه والمعاني، وأمّا الشعري فنعني به أن يعمد القائل مثلا إلى الشمس فيجعل لها أيديا يرمز بها إلى الأشعّة أو للسحب فيسمّيها جبالا "(حصاد الهشيم ص : 194، دار الشروق)

ولا بدّ أن ندرك فكرة المازني بمزيد من الفهم، فهناك استعمال كلمة بدل كلمة أخرة فتوضع موضعها وهذا مجاز لفظي، ويجعله سائرا

وموجودا بين العامة في كلامهم وحتى في الخطابات العادية وهو الأول في الوجود كاستخدام السّاعد للتعبير عن الصديق المعين، وهناك آخر شعري/ تخييلي يعتمد التشخيص وقد علّل ظهوره عند القدماء بأنّهم كانوا يقيسون الطبيعة على حياتهم، والمازني ذو رؤية متفرّدة فيما ذكره، فلم يرهق نفسه بكثرة التقسيمات لأنّ غرضه فكري بالأساس يبحث عن أصول استعمالات اللغة .

وإذا رمنا معرفة أنواع المجاز باعتبار العلاقات التي يتم نسجها في الخطاب فإنّنا لن نعثر على نص كذلك الذي تركه لنا السكّاكي (تـ 626هـ) – رحمه الله – فقد تبعه من جاء بعده، وأخذ برأيه وانتهج مسلكه – عدا بعض الانتقادات الجزئية التي وجّهها إليه القاضي جلال الدين الخطيب القزويني رحمه الله – وبنى على الهيكل التنظيمي والخطّة الدرسيّة التي قرّرها الرجل وكان قد تلقّاها عن فخر الدين الرازي (تـ 606هـ) في نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز تنظيما لعمَلَيِّ الجرجاني (الدلائل والأسرار)، ونص السكّاكي يقول فيه : " اعلم أن المجاز عند السلف من علماء هذا الفن قسمان: لغوي، وهو ما تقدم، ويسمى مجازا في المفرد، وعقلي وسيأتيك تعريفه، ويسمى مجازا في الجملة، واللغوي قسمان: قسم يرجع على معنى الكلمة، وقسم يرجع

علىٰ حكم لها في الكلام" (مفتاح العلوم، ص 316، المكتبة التوفيقية)، فالمجاز اللغوي هو في العبارة إمّا مفرد فيه الاستعارة والمرسل، وإمّا واقع في المركّب فنجد فيه المجاز المرسل المركّب والاستعارة التمثيليّة، أمّا العقلي فواقع في الإسناد أو الحكم ولذلك يسمّىٰ مجازا حكميا أو واقعا في الإثبات.

ب-المجاز علاقة تأويلية بين الانسان والعالم والخطاب لتوليد الدلالات :

وهذه الخطّة المنهجيّة لزمها بعد ذلك كل من جاء من البلاغيين ولم يحيدوا عنها عدا صفوة مباركة من بلاغيي المغرب العربي والأندلس فإنّهم اختطّوا لأنفسهم خطّة مغايرة تماما، مثل الذي نجده عند ابن البنّاء المرّاكشي (تـ 721هـ) – رحمه الله – عندما جعل علاقات المجاز المرسل والاستعارة تدخل ضمن تقسيم جديد، فهي تنتمي إلىٰ أقسام اللفظ من جهة مواجهة المعنىٰ نحو الغرض المقصود وتندرج في نوع محدّد هو تبديل شيء بشيء، فقد فهم ابن البنّاء في "الرّوض المريع في صناعة البديع" أنّ الاستعارة والمجاز المرسل عبارة عن إبدالات حاصلة في مستوىٰ الكلمات المفردة، ولم يجعلها متعالقة علىٰ مستوىٰ نظم الجملة، وهذه التفاتة فذّة توسّعنا فيها ضمن بحثنا في

الدكتوراه حول الدرس البلاغي في المغرب العربي والأندلس، فيقول ابن البناء المراكشي : " وأمّا إبدال شيء بشيء وهو مجاز كلّه .. وجميع الاستعارات إنّما هي إبدالات في المتناسبة"[1] وكان ابن البنّاء رحمه الله عقلا منتجا قد خبر الرياضيات وأدرك التناسبات والموافقات الحاصلة في كل من اللغة والفكر والمقاصد، إنّ العصور الزاهية للفكر العربي هي تلك التي شهدت سيطرة الرياضيين والفلاسفة والمتكلمين واللغويين والبلاغيين على المشهد الإسلامي، ولك في عهود الأندلس والدولة العباسية والفاطمية ودول المغرب معتبر، وإنّ أتعس فترات الحضارة الإسلامية هي تلك العصور المظلمة التي تحكّم فيها التزمّت والتكفير والتّبديع ورمي الناس بالضلالة ونصب محاكم للتفتيش – شبيهة بتلك التي نصّبت في الأندلس للمسلمين– تبحث عمّن يخالف الفقيه فلان، فتحذّر منه، وربّما تعتقله وتحرق كتبه، وقد تقتله[2]، إنّا في زمن أصبحنا نخاف على كلمتنا من هؤلاء، فالكلمة تبني الحضارة، أليس الإسلام كلمة ؟ نعم هو كذلك، جوهرها واحد يجمع التوحيد

---

[1] الروض المريع في صناعة البديع، تح رضوان بنشقرون، ص : 115.

[2] أذكر هنا ما تعرّض له الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله من تعذيب وقسوة .. وما تعرّض له الإمام ابن تيمية رحمه الله من تهجير وسجن وضرب وظلم ... وغيرهما كثير .. ما كان ذنبهما ؟؟ سوى أن قالا ما كانا يعتقدان أنّه الحق...

والعبادات والمعاملات مع الإحسان، ولكنّ تعدّدت مدلولاتها وتطبيقاتها، وليس لأحد أن يحدّد نموذجه الخاص به فيفرضه على غيره، إن كنت مقتنعا بفكرة ما فليس بالضرورة أن تنقل العدوى إلى غيرك، بل إذا دخلت في قوم وجدتهم على شرعة ومنهاج يمثّل وجهة من وجهات الشرع المتعدّدة فليس عليك أن تغيّر ما بأنفسهم فتفتنهم .

هكذا هي مسألة المجاز، إنّه يتجاوز علاقات اللغة ليمثل علاقات الانسان بالعالم وبما حوله، وهل يعتقد أحد أنّ المجاز وجد في اللغة للزينة ؟ أم أنّه وجد لتغيير أسلوب في اللغة ؟ أم أنّه استخدم في القرآن لأنّه فقط ولأنّه من أساليب العرب ونستشهد عليه من شعرهم وقضي الأمر ؟ سخيف هو ذلك العقل الذي يقف عند هذه الحدود، لأنّ المجاز خطّة محكمة مقصدها توليد المعاني بصفة لا نهائيّة، وتربط الانسان بعلاقات مع العالم والآخر بصفة لا نهائية من الدلالات المتجدّدة، والخطاب الذي يحقق التفوّق الزمني ويكتسح كل الفترات الزمنية هو بالضرورة يتمتّع بنصيب وافر من المجاز وعلاقاته، كذلك هو القرآن، لو كان حَرفي الدلالات وظاهري المعنى لما تمكّنا أن نعيش على شريعته وبأوامر ربّنا من خلاله من يوم نزوله على نبيّنا خير

المرسلين محمّد الأمين – صلى الله عليه وسلّم – إلى يوم الناس هذا وإلى يوم يبعثون بإذن الله تعالى .

هل يعقل أن توجد تفاسير – في عصر تقدّم فيه العقل الغربي ليبني عالما من الاستعارة وخطابا إعلاميا على الاستعارة – لا تقيم لعلاقات المجاز مكانة في خطابها، تسطيح للعقل الإسلامي ونسف لآليات عمله، والأدهى أن يستشهد على الآية بشعر جاهلي !! الأمم تبني تفسيراتها لتسير نحو الأمام ونحن لنذكّر بالماضي ونقف عنده، ونسبّ المعطّلة ونحذّر من جَهْم وأتباعه!!!.

لست ضدّ الاستشهاد بالشعر الجاهلي لفهم القرآن الكريم فذاك منهجي وتلك طريقتي وأفخر بها، ولكنها انطلاقة لبناء المعنى وتوسيع الدلالة من خلال النظر، ولا يجب الوقوف عند أوّل المعنى وتثبيته والامتناع عن الأخذ باحتمالات للمعاني والدلالات يتيحها لنا النّظر في المجاز، خاصة وأنّ هذا النظر والتأويل (ولو إجماليا) يقي من التناقض ويضمن انسجام الخطاب وحسن اتساق معانيه مع ألفاظه وتراكيبه وغايات مقاصده .

وليس غريبا أن أقول إنّ فهم الواقع / الحياة فعالية مجازية في الأصل، لأنّ الدنيا دار المجاز والعبور إلى دار الحق، وعبارة أبي حامد

الغزّالي ليست ببعيدة عنّا عندما قرّر بأنّ الحياة الدنيا منام وإذا متنا استيقظنا، كذلك هناك أفعال هي في طور المجاز مثل الاحتلام فهو فعل مجازي جنسي ولكن تترتّب عنه نتائج حقيقيّة من الوجهة الشرعيّة تتعلّق بأحكام الغسل والعبادات .

إنّ العقل/ الإنسان المخاطب في كتاب الله عزّ وجل يمتلك ملكات فهم الخطاب، ويعرف استراتيجيات الانتقال بين مستويات الكلام، ولا يعقل أن يتوقّف الإنسان ولا يبتغي الحكمة والإعجاز في كلام البارئ عزّ وجل والمجاز من أكبر ميادين النظر في معجزة القرآن الكريم البلاغيّة .

ومازال العالم يذكر جيّدا موقف سبينوزا Spinoza – ذلك اليهودي الموريسكي الأصل- من التوراة في رسالته في الدين والدولة فقد رأى بثاقب نظره "أنّ لغة التوراة يغلب عليها المجاز والاستعارة، وهذا المجاز والاستعارة أمر متعمّد ومقصود، لا لأنّه يتناول النزعة الشرقية وميلها إلى الأدب الرفيع ... ولكن لأنّ الأنبياء قد لجؤوا إلى إثارة الخيال في دعوة الناس إلى مبادئهم ومذاهبهم "[1].

لسنا نوافق من جهتنا على أنّ الكتب المنزّلة على الأنبياء تقصد إلى إثارة الخيال، ولكن الأمر في جزء منه ليس بعيدا عن حقيقة

---

[1] ول ديورانت، قصة الفلسفة، مكتبة المعارف بيروت، ط4، ص : 203 .

هذه الكتب، فكم من أمور تستثير الخيال فيستجيب لها، بل ويفلح المجاز في صناعة الخيال ويؤسس لحقائق وجدانية وأخرى عقليّة يعزّ التعبير عنها بالكلام العادي، وانظر في سورة يوسف إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف :30).

كيف عبّر عن تمكّن محبّة يوسف من قلب امرأة العزيز فجعل داخلا في شغاف القلب، وكأنّ السامع لهذا الوصف الجليل، يرى حبّ يوسف قد خالط القلب وداخل الشغاف[1] فلا يستطيع الخروج منه إلا إذا أخذ القلب من مكمنه، وقد رصد الشهيد السيّد قطب – رحمه الله – أنواع التخييل في القرآن العظيم وضرب الأمثال مبيّنا أنّ هذا من أروع أساليب القرآن، وهاهو سيّد يبيّن أنّ هناك من التخييل ما يمكن أن " نسميّه التشخيص يتمثّل في خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعيّة والانفعالات الوجدانية، هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانيّة، تشمل المواد والظواهر والانفعالات... هذا هو الصبح يتنفّس " والصبح إذا تنفّس" فيخيّل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التي تنفرج عنها ثناياه وهو يتنفّس

[1] سبق لي أن سمعت ذلك من أستاذي الدكتور عبد الغني بارة في جامعة سطيف 2 في محاضرات نظرية التأويل في مرحلة الماجستير لمّا تحدّث عن الحب من منظور تأويليّة الذات.

فتتنفّس معه الحياة ويدب النشاط في الأحياء على وجه الأرض والسماء"[1].

هكذا هو العقل المستنير الذي يفهم القرآن ويتمثّل معانيه ويتدبّرها، ويستجلي منابع الجمال فيه، لأنّ من أراد معرفة جمال اللغة في نفس الإنسان نظر إلى المجاز وصوره، فإنّها أصدق تعبير عن طاقة اللغة التصويريّة، أيعقل أن يخلو كتاب الله العظيم منه ؟ إنّ المدّعي بهذا على الله تعالى لمتّهم في عقله وذوقه، بل ويجعل العارف باللغة وعلوم القرآن يشك في مقاصده وما يريده من لغتنا وديننا.

وكل ما نجده في بلاغتنا العربيّة – ممّا يرتقي إلى جلال كلام الله تعالى – فهو واقع على أبدع أسلوب وأحسن طريق في القرآن الكريم، وهذا مصطفى صادق الرافعي رحمه الله يقول: " بيد أنّه لا يفوتنا التنبيه على أنّ كل ما أحصاه العلم من أنواع البلاغة في القرآن الكريم...فهو يستعير حيث يستعير ويتجوز حيث يتجوز ويطنب ويوجز .. إلى آخر ما أحصي في البلاغة ومذاهبها ؛ لأنّه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزا في جهة من جهاته "(إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص : 258) .

[1] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة –مصر، ط17، 2004، ص: 73.

إنّ رسم علاقات الإنسان سواء كان في الخطاب الإلهي أو كان على مستوى الإنسان لا ينفك من المجاز، فهو ضرورة وجودية بمختلف فروعه، بل ويقترن بازدهار الجانب الحضاري للحياة الإنسانية، وهذا أبو نصر الفارابي رحمه الله يقرّر أنّ للغة طورين:

1-. (طور استقرار الألفاظ على المعاني)

2-. (طور المجازات والاستعارات) [1]

والطور الثاني تحصل منه الأقوال الخطابية المقنعة والشعريّة المخيّلة، وهذا يرتبط بتوسّع الحالة الحضارية للعلاقات الإنسانية، فهو ضرورة إنسانيّة لا مهرب منها، وليس زخرفة وتزيينا في القول، وإنّا نرى وجوها من الناس يبالغون في دفع الجمال عن لغتنا الجليلة، فيحاربون المجاز وبدائع الأسلوب في خطابهم وينكرون على من يقع في خطابهم، فكأنّما أنكروا الجمال الإلهي المتجلّي في نعمة من نعم الله وهي هذا اللسان المبين الذي شرّفنا الله بالنّطق به، وانظروا إلى الغرب بعد إحياء بلاغتهم والتفاتهم إلى الجوانب الضائعة منها، هذا ريتشاردز (Richards) في كتابه فلسفة البلاغة يقول عن الاستعارة : " إنّ الاستعارة هي المبدأ الحاضر أبدا في اللغة .. فنحن لا نستطيع أن

---

[1] ينظر : الفارابي كتاب الحروف .

نصوغ ثلاث جمل في أي حديث اعتيادي سلس دون اللجوء إلى الاستعارة .. وحتى في اللغة الجافة للعلوم الراسخة لا يمكننا أن نستغني عنها دون أن نعاني من بعض المصاعب "[1] فاللغة لا يمكن أن تقوم من دونها، وليس المجاز ولا الاستعارة إعلان حرب على الحقيقة بل هي وسيلة – إن لم تكن أفضل الوسائل – لترسيخ الحقائق الكاملة، فكمال الحقائق بتعدّد التأويلات والفهوم، فالحق واحد ولكن طرقه متعدّدة تلتقي عنده .

إنّ التوتّر الذي يخلّفه الوجود الاستعاري (وهو جزء مجازي) عند إطلاقه يؤسس للمعنى ويفتح السبيل للدلالات المختلفة، بل إنّ الجدل الحاصل بين المركز الغائب والهامش الحاضر أو بين التأويلات الاستعاريّة يشكّل توترا يغني جوانب المعنى و "يكسب اللغة الشعريّة خاصيّة فائض القيمة الدلاليّة، أي قدرتها على الانفتاح على مظاهر جديدة وأبعاد جديدة وآفاق جديدة للدلالة "[2] مثلما أوضح بول ريكور Paul Ricoeur في مؤلّفه المشهور " La métaphore vive" وواجبنا أن نقرأ بلاغتنا العربيّة وننظر إلى لغتنا بعيون بلاغيّة تحترم فطرة اللغة

---

[1] إيبور أرمسترونغ ريتشاردز، فلسفة البلاغة، تر: سعيد الغانمي و ناصر حلاوي، ص: **93** .

[2] بول ريكور، الاستعارة الحيّة، تر: محمد الولي، دار الكتاب الجديد، ص: **391** .

وآلياتها لنفهم كتاب المولى عزّوجل فإنّه السبيل الأوحد لفهم العالم والإنسان.

وإنّ الدّعوة إلى تعطيل أداة مثل المجاز أو الفهم المجازي لهي مصيبة كبرى تقع على رأس البلاغة العربيّة التي تأخذ على عاتقها صناعة الفهم لمقاصد الخطاب، والله يشهد أنّي أروم الحق والإصلاح، وإلّا فإنّي لا ينفعني ولا يضرّني أن أناقش ابن تيمية رحمه الله أو أن أناصر الجرجاني رحمه الله، فقد لاقى كلّ منهما ربّه، وبقيت آثارهما، والواجب علينا إمّا توسعتها وإمّا نقدها والدعوة إلى بديل عنها، هكذا نكون أمّة تحترم نفسها وتحترم عقلها، ولا نقف فقط لتقديس الرجال وذكر فضائلهم.

لا يفوتني هنا التذكير بأنّ ما يصلح لبلاغتنا ليس بالضرورة أن نجده في البلاغة الغربيّة القديمة أو الجديدة، بل إنّي من دعاة استنباط الدرس النقدي والبلاغي من صحيح النص العربي واللغة العربيّة، فالبلاغة الغربيّة نشأت في ظروف تشابه البلاغة العربيّة، ولكن ليس بالضرورة أن يكون العقل الغربي هو نفسه العقل العربي وما يصلح بالبلاغة الغربيّة سيصلح بالبلاغة العربيّة .

وليس على باحثينا أن يخلدوا إلى الدرس العربي ويصمّوا آذانهم عن سماع ورؤية وقراءة ما يجري حولهم، فنظل ندعو على الجهميّة والمعطّلة ونرميهم بصواعق مرسلة – وينسون ضرب من يقتحم الأقصى بصواعق مرسلة –، فذلك أمر قد تمّ في قرون خلت ومن العيب،بل من خسران العقل والوجدان أن نظل عليه عاكفين في أيّام أصبحت فيه الاستعارة نظريّة معرفيّة نروح ونغدو عليها تأتيتنا حتّى في طعامنا ولباسنا، بل قاتلنا أعداؤنا من خلالها[1]، إنّه زمن صعب يتطلّب وعيا كبيرا، نسأل الله العافية لأمّتنا المسلمة وننشد ذلك المجتمع الإسلامي وندافع عن خصائص تصوره السّامي.

لم تجد نهضتنا في بدايات العصر الحديث نجاح النّهضة في أوروبا ؛لأنّ المنطلقات كانت خاطئة[2]، وكانت أسئلة أصحاب النّهضة بعيدة عن روح العصر الذي يعيشونه، وزاد الاستعمار الطين بلّة عندما

---

[1] ينظر في ذلك ما كتبه جورج لا يكوف ومارك جونسون (Georges Lakoff et Mark Johnson)حول الاستعارة في كتابيهما: "حرب الخليج أو الاستعارات التي تقتل" وكتاب "الاستعارات التي نحيا بها" فقد قدّما مقاربة معرفيّة للاستعارة خرجا بها من التصوّر الأرسطي إلى آفاق جديدة تمسّ نواحي الحياة المعاصرة من خطاب سياسي واجتماعي وحتى العلمي والراياضي، فهل هبّة من المسلمين العارفين باللغة والبلاغة للخروج بالبلاغة العربيّة من رداء الجرجاني ذي الفضل وصياغة رؤية جديدة تحترم اللغة والفكر تنبع من صميم اللسان العربي وتمثّل خطاباته ؟؟

[2] انظر في ذلك : طه عبد الرحمن، روح الحداثة، في حديثه عن خطط القراءة الحداثية الإسلامية المبدعة من تأنيس وتعقيل وتأريخ.

أغرق المجتمع المسلم في عقليّته وعاداته الاجتماعيّة ولغاته وآدابه، فغدا عندنا أدب عربي بصبغة أوروبيّة وبمذاهب أوروبّيّة، وقد تصدّىٰ لهذه الظّاهرة أساطين الأدب الإسلامي من أمثال " أنور الجندي " ونجيب الكيلاني " وغيرهم ممّن دعا إلىٰ إعادة النّظر في قضيّة أدبنا الحديث ومنه النّقد وكذلك الفهم البلاغي، ونحن علىٰ عتبات البلاغة الجديدة، فينبغي الاحتراز والاحتراس قدر الامكان حتىٰ لا نجد أنفسنا بعد زمن قد سمّينا بلاغتنا العربيّة البلاغة القديمة، وأقبلنا علىٰ بلاغة الغرب وسمّيناها حديثة ومعاصرة، هكذا وقع للنّقد العربي للأسف الشّديد، ولكنّ البلاغة أشدّ حرمة منه، فهي ألصق بالقرآن الكريم وإعجازه، لست ضدّ الاستفادة من البلاغة الجديدة، بل أنا من الدّاعين إلىٰ النّظر في إنتاج الغرب فيها، ولكن مع مراعاة خصوصيّة اللغة العربيّة الجليلة والدّرس البلاغي العربي والنّحو العربي وكذلك الشريعة والعقيدة .

ج-تاريخ الأدب والفكر العربي في ضوء المجاز :

- **الحقيقة والمجاز وظواهر الواقع :**

ما سأعرضه في هذه النقطة هو نتاج رؤيتي الخاصّة لمسألة الحقيقة والمجاز، وقد استعنت في ذلك بالتراث العربي، وكذلك

بنتاج العقل الغربي المتمثّل في فلسفة كانط والفينومينولوجيا تطوّعها رؤية إسلاميّة وملكات لسانية وبلاغية عربيّة، ومن ينكر علينا هذا الأخذ نبلغه بأنّ جانبا كبيرا من حياته الحقيقيّة – وليست المجازية التي يقضيها في كتاب أو درس – تتحكّم فيه فلسفات غربيّة، ويطبّقها إجرائيّا كلّ يوم دون وعي منه، بداية من الفلسفة البنيويّة إلى التفكيك إلى الفينومينولوجيا والهيرمينوطيقا والبلاغات الجديدة ... إلخ، ولو ظلّ البحث العلمي في البلاد العربيّة قابعا تحت مظلّة التراث ، أو تحت مظلّة النتاج الغربي الحديث فقط فسنظلّ إمّا غرباء وإمّا منسلخين، إمّا أن نجادل الجهميّة والمعطّلة وإمّا أن نجادل الفلسفات المعاصرة التي تمدّ ظلالها على حياتنا اليوميّة وللأسف سنجدها يوما تدخل إلى عقائد الأجيال القادمة والعياذ بالله.

المجاز واقع في اللغة كما يعبّر به عن الحقائق يعبّر به كذلك عن الأباطيل، فمثلا إذا سألت أحدهم عن شعوره وقد نجح فقال لك "أطير فرحا"، فهل يكون قد كذبك القول؟ ألم ينقل لك حقيقة ؟ لكن هناك فرق شاسع بين الحقيقة والواقع، فليس بالضرورة أن تكون كل

الحقائق واقعا معاينا، وهذا أمر تنبّه إليه الإمام ضياء الدين بن الأثير[1] (تـ 637هـ) حين قال : " وأنا بصدد أن أبين أن في اللغة حقيقة ومجازاً، والحقيقة اللغوية هي حقيقة الألفاظ في دلالتها على المعاني، وليست بالحقيقة التي هي ذات الشيء أي نفسه وعينه، فالحقيقة اللفظية إذاً هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة، والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له إلى لفظ آخر غيره "[2] .

فالحقيقة المجرّدة الواقعة المطلقة ليست الحقيقة اللغويّة التي يعمل المجاز على تجاوزها واختراق قواعدها الدلاليّة ليبني دلالات جديدة تسمو فوقها، ولهذا فقولنا إنّ عبارة ما مجازية لا علاقة له بالحكم عليها بأنّها ليست واقعة أو ليست حقيقيّة، لأنّ الحقيقة المجرّدة والواقعة لم نتّفق عليها بعد، بل هناك من ينكر معرفتنا المحضة لها .

[1] طراز هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين عاشوا زمن الصّحوة الحقيقيّة زمن الدولة الأيوبيّة وما جاورها طراز فريد وعقولهم تمكّنت من تحرير العقل الإسلامي قبل تحرير بيت المقدس، فكيف نريد تحرير القدس يومنا هذا ومازال العقل الإسلامي مسجونا داخل مقولة ظاهر النص، وتحريم التأويل، وتحريم الفهم، بل وتحريم الإنسانيّة جملة واحدة، والأدهى والأمر النّصح بعدم التعمّق في العربيّة وهناك من نصح تلاميذه بحفظ لسان العرب ليتقن العربيّة !!!!! متجاهلا قواعد العلماء في تلقين اللغة وإجادتها.

[2] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح : محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ج1، ص: 75.

وهل يمكن أن ندرك الواقع يقينا على حقيقته؟ هذا أمر مستحيل عند كانط وعند كثير ممّن تابعوه. ولهذا دوما أقول : المجاز معراج الحقائق الكبرى، تلك الحقائق التي لا تطيقها اللغة العادية (الحقيقة اللغوية)، فيمكن للواحد منّا أن يعبّر عن كثير من حقائق ظواهر الواقع بالمجاز، وحقيقة ظواهر الواقع ليست الواقع، فهذا الأخير متعذّر معرفة حقيقته، وما نعرفه عنه إنّما هي ظواهر فقط (phenomen) منها الطبيعية والتاريخية والعلمية والنفسية... إلخ، ولا عداء ولا تضاد بين الحقيقة (العقلية والعلميّة والمعرفية) والمجاز ولا بين الواقع والمجاز، فيمكن التعبير مجازيا عن حقائق ظواهر الواقع وكلّما عظمت الحقائق كان المجاز معراجا لتجلي وتبيان دلالاتها.

المجاز يعارض الحقيقة اللغويّة ويقابلها[1] ؛ لأنّه يعمل بعكسها ويخترق قواعدها ويتجاوزها، ولكن هذا لا يعني أنّه يخترق الحقيقة الفعليّة (علمية كانت أو معرفية أو إلهية عقدية ...)، ولا يوجد تعارض في الأصل بين الواقع والمجاز، لأنّ الواقع لا ينسج وجوده عبر اللغة، والمجاز يشتغل على مستوى اللغة، فلا تعارض بينهما، كما

[1] ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية، ج2، ص : 218.

لا تعارض بين جوهرين لا يحملان صفات متضادة ولكن بينهما تباين واختلاف، ولا يعرضهما للتقابل بالضد.

الحقائق : حقائق ظواهر الواقع الإنساني (طبيعية، علمية، نفسية ...إلخ)، وهناك الحقيقة اللغوية التي تقدّم حقائق ظواهر الواقع مجتهدة أن تكون أنظمة اللغة معجميا وتركيبيا ودلاليا مطابقة لها، فإذا أراد الإنسان أن يعبّر عن رؤيته لهذه الظواهر بأمر لا تتحمّله الحقيقة اللغوية لجأ إلى المجاز والتصوير وفي ذلك يقول الشهيد سيّد قطب[1] رحمه الله : "وحقائق الحس والشعور الناشئة من ملاحظة العالم الخارجي الواقع لقد تبدو في ظاهرها بعيدة عن الحقيقة، ولكنّها على بعد معيّن تلتقي مع حقيقة أخرى أكبر وأعمق من هذه الحقيقة الظاهريّة القريبة، فابن الرومي مثلا حين يقول عن الأرض في الربيع :

تبرّجت بعد حياء وخفر   تبرّج الأنثى تصدّت للذّكر

---

[1] يدين النقد الأدبي العربي الحديث لهذا الرّجل بالكثير، فقد أخذت أفكاره وتكلّم بها كثيرون دون أن تعزى إلى صاحبها، وهو في غمرة صراعه الفكري لينصر الحق الذي اجتهد في سبيل إجلائه وفق ما رآه، وليس علينا أن نناصر سيّد قطب وكذلك ليس علينا أن نسخط عليه، بل الطريق الصحيح أن نقرأ أفكاره ونتمكّن من توجيه نقد داخلي يتمكّن من كشف مشروعه الذي لا ينفصل فيه الأدبي/النقدي عن الفكري، وللبلاغة حظ كبير وعظيم عند سيّد قطب، فلولا بلاغة في كتبه لما عرفت انتشارا ولما أثّرت في ظرف سنوات معدودات.

يبدو هذا القول خيالا شاعريا يخالف الحقيقة العلميّة، فالأرض مادة جامدة والأنثى حيّة متحرّكة، ولكنّ الحقيقة الأعمق، أنّ الأرض في الربيع بكل ما فيها من الحياة والأحياء تستعد للإخصاب في جميع عوالمها: عوالم النبات والحيوان والإنسان، وتتهيّأ بكل ما فيها من رصيد لهذا الإخصاب"(سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه،دار الشروق،ط5، 1983م، ص 13).

وإنّ الأدب يعبّر عن الحقائق الكبرى ولا يبتعد عنها، ويستخدم المجاز مسلكا للخيال الذي يصوّر هذه الحقائق الكبرى " فللأدب حقائقه الأصيلة العميقة بل إنّ الأدب الصحيح لا يتجاوز منطقة الحقائق ولو شطّ به الخيال " (سيّد قطب، المرجع السابق، ص : 111)

وقولنا : " تنفّس الصبح" مجاز، لأنّه يعارض الحقيقة اللغوية ويتجاوزها، ولكنّه يعبر عن حقيقة طبيعية وهي بداية الصبح وانبلاج ضوئه للناظر وبداية الحياة فيه كنفس يخرج من إنسان دلالة على الحياة والحركة، فلا تعارض بين هذا المجاز وبين الحقيقة الطبيعيّة، أمّا الواقع فإذا اعتبرنا أنّ الواقع هو ظواهر تتجلى للذات المدركة، فنقول بأنّه يمكن أن يتجلى الواقع على هذه الشاكلة إذا كنا لا نملك أن نعرف حقيقته فهي متعذرة، فلم يبق إلا معراج المجاز لعرض جانب

منه، كما تعرض الحقيقة اللغوية جانبا آخر منه، وهي الأخرى تخطئ في غير قليل من المرات في رصد هذا الواقع .

- **المجاز والصورة في الجاهليّة :**

إنّ العقل العربي انتقل من طور إلى طور، فلو رجعنا إلى أعماق العصر الجاهلي ونقّبنا عن النصوص التي بقيت في القرن الثالث الميلادي وما بعدها إلى قبيل الإسلام بقرنين، سنجد الفن الشعري العربي يغلب عليه التشبيه، والتشبيه مسلك المجاز الأول، يقول أدونيس عن هذه المرحلة : "والشعر الجاهلي صورة الحياة الجاهلية : حسي غني بالتشابيه والصور المادية وهو نتاج مخيّلة ترتجل وتنتقل من خاطرة إلى خاطرة " (أدونيس، مقدّمة إلى الشعر العربي، دار العودة، ط4، 1983م، ص 32) .

إنّ الشاعر الجاهلي عالم بعصره، وإنّ الشعر في تلك الفترة ضارب في جذور التاريخ إلى ما قبل الميلاد، لكن لم يصل إلينا إلا نتف منه، ومن بين القصائد القديمة التي وقعت بين أيدي الرواة قصيدة لقيط بن يعمر الإيادي[1]، والناظر فيها يدرك أنّها من قديم الشعر،

---

[1] **قصيدته غالبا ما كنت أستهل بها السنة الدراسية مع تلاميذ الأولى ثانوي وإن لم تكن مقرّرة عليهم، ولمّا شاركت في التدريس الجامعي في المدرسة العليا للأساتذة كنت أقدّمها على سائر النصوص في مقياس الأدب الجاهلي – تطبيق – مع طلبة السنة الأولى في قسم اللغة والأدب**

فيجد تجاور المجازات والكنايات والتشبيهات، بطريقة توحي أنّ منازع البناء الأسلوبي في القصيدة شهدت تطوّرا ملموسا في الصورة والتركيب، فانظر إلى قوله :

يا دارَ عمرةَ من محتلِّها الجرعا... هاجتْ ليَ الهمَّ والأحزانَ والوجعا

تامتْ فؤادي بذاتِ الجزعِ خرعبةٌ ... مرَّت تريدُ بذاتِ العذبةِ البيعَا

بمقلَتي خاذلٍ أدماءَ طاعَ لهـا ... نبتُ الرِّياضِ تزجِّي وسطهُ ذرعَا

وواضحٍ أشنبِ الأنيـابِ ذي أُشرٍ ... كالأقحوانِ إذا ما نورهُ لمعَا

فمـا أزالُ على شحطٍ يؤرِّقني ... طيفٌ تعمَّدَ رحلي حيثُما وضعَا

بل أيُّها الرَّاكبُ المُزجي على عجلٍ ... نحوَ الجزيرةِ مرتاداً ومنتجعَا

أبلغْ إياداً وخلِّلْ في سراتهمُ .. إنِّي أرى الرأيَ إنْ لم أُعصَ قد نصعَا

يا لهفَ نفسيَ إنْ كانتْ أموركمُ .شتَّى وأُحكمَ أمرَ النَّاسِ فاجتمعَا

أبناءُ قومٍ تــآووكمْ على حنقٍ ... لا يشعرونَ أضرَّ اللهُ أمْ نفعَا

أحرارُ فارسَ أبناءُ الملوكِ لهمْ ... من الجموعِ جموع تزدهي القلعَا

تجد التشبيه يجاور المجاز وفي النص كنايات، والأكيد أنّ القصيدة تمثّل مرحلة وسطى بين البدايات الأولى وبين القمّة التي وصل إليها

العربي، وذلك لما تحتوي عليه من قيم وصور وخصائص أسلوبيّة تمثّل عصرا سبق البعثة، ويظهر منه رغبة العرب في الوحدة .

الشعر العربي قبيل البعثة وأثناءها، والنص يصوّر الغربة والاغتراب، وحرقة الفؤاد على الموطن والأهل، فهل يعقل تأدية هذه البواعث والأشجان بالحقائق اللغوية، تأبى الروح الشعريّة ذلك، فالعدو أحكم أمره مثلما يحكم أمر الحبل والوكاء واشتدّ زمامه فهو غير منفلت، ثم كانت الكناية مطيّة المبالغة فالعدوّ تضاهي جموعه السحاب، وتلك الحبيبة التي يتمثّل فيها القبيلة لها واضح أشنب كالأقحوان، ولجمالها يخاف عليها من عدو خبر من مظاهره ما لم يره قومه، هكذا كانت رسالة اللقيط بن يعمر، رسالة إلى قومه، ورسالة إلينا يطلعنا على صورة الشعر القيّمة في فترته والفترة التي سبقته بحوالي قرن أو ما يزيد، وحضور المجاز بشكل غير كثيف، بل هو معتدل يبيّن لنا أنّ العقلية العربية لم تتعرّض بعد إلى الحقائق الكبرى، بل كانت تعرض الحقائق الفطرية، وهذا لا يعيب العرب، بل يعلي من شأنهم، لأنّهم كانوا نحائز مؤدّبة مثلما وصفهم ابن المقفّع فيما رواه أبو حيّان التوحيدي – رحمهما الله:"...حتى إن الرجل منهم وهو في فج من الأرض يصف المكارم فما يبقي من نعتها شيئا،ويسرف في ذم المساوئ فلا يقصر، ليس لهم كلام إلا وهم يتحاضون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار وبذل المال وابتناء المحامد،كل واحد منهم يصيب ذلك

بعقله، ويستخرجه بفطنته وفكرته فلا يتعلمون ولا يتأدبون، بل نحائز مؤدبة وعقول عارفة "[1]

كذلك عبّر حضور التشبيه عن هذه الخصائص، وكما لمّح أدونيس بأنّ الفكر كان لا يزال عالقا بالماديّة والحسيّة، بل إنّ الواقعيّة كانت لا تزال تبسط سلطانها على العقل العربي، ذلك الواقع الذي يتمظهر لهم بحسب رؤيتهم له، وهذا لا ينفي وضعه في قالب مجازي، حسب ما يرونه فيه، وعقليّة العرب تتجلّى في أدبها، ومن يريد أن يرصد تطوّر الفكر العربي والإسلامي ليس عليه إلا مساءلة نصوص اللغة وأجود نصوصها بالدّرجة الأولى ماكان تنزيلا بالوحي في الخطاب الإلهي أو شعرا وأدبا في الخطاب الإنساني، و " إذا كانت عقلية الأمّة ومزاجها وفلسفتها يتجلّى كثير منها في نظامها اللغوي وخصائص تركيبها وهندسة بنائها فإنّ التعمّق في دراسة هذه الكيفيات يكشف لنا الكثير من هذه الطبائع وتلك الفلسفة التي ماتزال في دراساتنا موضوعا مغلقا"[2] .

[1] أبو حيان التوحيدي،الإمتاع والمؤانسة،دار الكتاب العربي بيروت لبنان،ط 1 2004،ص47.

[2] محمّد محمّد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، مكتبة وهبة، ط4، 2012م ن ص: 24

فإذا تقدّمنا إلى القرنين اللذين يسبقان البعثة إلى زمن البعثة النبويّة المباركة، وجدنا الشعر العربي يصل القمّة والذّروة، والملكات العربيّة اللغوية والبلاغيّة قد هيّئت بأسباب إلهية لتلقّي الذّكر الحكيم، وتفهّم معانيه فيلامس الإيمان الحق منها شغاف القلب فيتمكّن منها، وإنّا إذا ألقينا نظرة على شعر هذه المرحلة سنجد المقدّمة الطّلليّة تبرز للعيان، وهي مقدّمة وفاتحة مجازية تفتح أبواب القول على أشجان الفرقة والماضي، وتبث سحر المودّة والأيّام الخالية التي كتبها الزمن على ما شخص من آثار الديار وعلى الرسم المضمحل الذي تتبيّنه العين عسى أن تجد شيئا من زهوها الغابر وفرحها المندثر، استمع إلى امرئ القيس الكندي ينشد :

ألم تسأل الربع القواء بعسعسا كأنّي أنادي إذ أكلّم أخرسـا

فَلَو أَنَّ أَهلَ الدارِ فيها كَعَهدِنا وَجَدتُ مَقيلاً عِندَهُم وَمُعَرِّسا

فَلا تُنكِروني إِنَّني أَنـا ذاكُمُ لَيالِـيَ حَلَّ الحَيُّ غَولاً فَأَلعَسا

فَإِمّا تَريني لا أُغَمِّضُ ساعَةً مِنَ اللَيلِ إِلّا أَن أَكُبَّ فَـأَنعَسا

تَأَوَّبَنـي دائي القَديمُ فَغَلَّسا أُحاذِرُ أَن يَرتَدَّ دائي فَأُنكَسـا

فالطّلل يشخّص، وهو ذو خاصية إنسانيّة له إمكانية إرجاع الجواب، والطلل خبرة نفسيّة عند الشاعر الجاهلي، تعقد فيه اللغة

معاقد الحياة، وتنسج فيه منازع المجاز من كل مسلك ليغدو نسيجا من العواطف بين الذّكرى والألم والحنين والأمل، وليس الطّلل رمزا فقط، بل يتعدّى ليكون معادلة اختزالية لذكرى الحياة والزمن، فامرؤ القيس يسائل الموضع، فيبعث سكوته على ذكرى الأحبّة، والمفتتح الطّللي دوما هو الخيط الذي يسحب الذكرى ويقود الرحلة ويبعث على الحماسة ويستزيد الجواد في عطائه، إنّه سحر المجاز في كل بيان يدخله، ومن البيان يكون السّحر، يقول الدكتور محمّد محمّد أبو موسى في هذا الشأن : "وقد غفل بعض الدّارسين عن إدراك طبيعة الموقف النفسي في مساءلة الأطلال وعن طبيعة المجاز والخيال التي تصاغ فيه صوره...فالأطلال والدّمن ليست في وجدانه ميّتة راكدة، وإنّما هي شواخص أحياء، لأنّ الشاعر حين يقبل عليها بحنينه وجيشانه يذهل عن حقيقتها"[1].

وهذا النّابغة الذبياني، يسائل الديار في مطلع يتجاوز حقائق اللغة التي تنكر أن يوجّه الخطاب إلى الديار والطّلل، هذا حدّ المعجم في تواصل علاقات التركيب بين عناصره، ولكنّ طور المجاز يأبى إلا أن يصنع دلالة فوقيّة، تعبّر عن ظواهر الواقع كما تتجلّى للشاعر

[1] محمّد محمّد أبو موسى، التصوير البياني، ص : **324**

حقائق، أليس الربع والديار والطّلل والرسوم قد شهدوا مرمر الحبيب في رواحه وغدوّه ؟ أليس الطّلل شاهدا على طفولة المرء ؟ ألم يكن الرّبع موضع البكاء والفرح والسرور؟ ألم تكن هذه الرسوم يوما مكانا لأوّل قبلة وابتسامة وتحيّة سلام؟ إنّها حقائق شعوريّة عاطفيّة وهي من ظواهر الواقع، لا تستطيع الحقيقة اللغويّة حملها فيكون لها نصيب من التخييل الذي لا نستطيع جمع لحمته وسداه إلا بكيمياء المجاز، سحر وعمليّة هرمسيّة ثلاثيّة العظمة تسمح لكل نقيض بالتآلف مع نقيضه، هذا صوت النابغة يروي :

يا دارَ مَيَّةَ بِالعَليـــاءِ فَالسَنَدِ   أَقوَت وَطالَ عَلَيها سـالِفُ الأَبَدِ

وَقَفتُ فيها أُصَيلاناً أُسائِلُها   عَيَّت جَواباً وَما بِالرَبعِ مِن أَحَدِ

النّداء نداء الحي، ففيم نداء الجماد؟ جماد أقوى فأين ساكنوه؟ وطال عليه الزمن والزمن قوّة قاهرة للإنسان في الجاهلية وكأنّ العربي عرف بفطرته التي فطره الله عليه أنّ "الإنسان في خسر" مع هذا الزمن، نداء الديار أكان مجازا مرسلا أو استعارة أو تجاهل عارف يبقى كيمياء تصنع إكسير الجماليّة الشعريّة متعانقة مع الحساسيّة العاطفيّة، وإنّ الناظر إلى نسبة الدّار إلى ميّة يدرك سرّا بليغا، فالرّجل لم ير في الدار سواها، فغدت الدار دون رجال ونساء وصبيان وخدم إنّها لميّة

وحدها، كذلك القلب الذي بين جوانحه، ليس فيه سوى ميّة، فهل نداء الدّار سوى نداء القلب الذي تسكنه حبيبة فتّش عنها فيه فلم يجدها تراها أين رحلت ؟ ومتى تعود؟ فيعيش على الذكرى، فالذكرى تكفي الإنسان ليعيش، ألا نعيش نحن على ذكرى ذلك العالم العلوي الذي عشنا فيه يوما ؟ كيمياء غريبة أنت أيّها المجاز، لمّا حرّم رجال الدين (المسلمين/ الغرب) الذين يعتبرون أنفسهم وكلاء الشرع وتزمّتوا في حكم ممارسة الكيمياء وتوجّسوا منها السّحر عدل الكيميائيون من سحر المواد والخصائص إلى سحر الكلام، فغطّوا مقاصدهم بالمجاز، فهو كيمياء من نوع عجيب، يفصح إذا كان عندك مفتاحه، ويوغل في السر إذا لم تكن من أهل الفتح، ولهذا نجد المتصوّفة لا يكتفون بالمجاز بل يذهبون به إلى الإشارة والإشارة أبعد من المجاز وأقرب منه إلى الحقيقة في رحلة تحوّل إكسير في الزمن فاعتبر.

إنّ عصر الجاهليّة شهد الصور والمجازات والتشبيهات أجلى ما تكون وأروع، وانظر إلى قول الشمّاخ في وصف قوسه حين كانت عودا رطبا بل لاتزال في الأرض مغروسة :

نمت في مكان كنّها واستوت به فما دونها من غيلها متلاحزُ

فمازال ينجو كلّ رطب ويابس   وينغلّ حتى نـالها وهو بارزُ

فلمّا اطمأنّت في يديه رأى غنى   أحاط به وازورّ عمّن يحاوزُ

هذه القوس وهي لا تزال عودا منغرسا ناميا في أرض تكنّها، تخفيها وتحتفي بوجودها فيها، فالأرض أمّ وهي كنانة تكنّ ما عليها عاجلا أو آجلا، فاستوت هذه القوس (لمّا كانت عودا مغروسة في الأرض) وهنا مجاز بارز في اعتبار ما سيكون عليه هذا العود المغروس في الأرض، واستوت مدّت سلطانها وتمكّنت وعلت وحفّ بها الرّطب واليابس فقد كانت في مكان عزيز استوت فيه ومدّت سلطانها، فنالها، ولمّا اطمأنّت في يديه رأىٰ غنىٰ، لمّا أسكها وهي عود طري رأىٰ أنّه سيبيعها وينال المال، لمّا كانت عودا بين يديه، وكانت اليدان طريقا للمال رأىٰ الغنىٰ، انظر كيف يكون التناسب بين مآلات المجاز المعبّر عن الحقائق الشعورية والعقليّة عند الإنسانيّة، وسترىٰ كيف يبلغ القمّة التي لا تدانيها قمّة أخرىٰ عندما نأتي إلىٰ الذكر الحكيم، فهذه القوس (العود باعتبار ما سيكون عليه) ستدر عليه المال، فالغنىٰ سيحيط بالقوّاس، كيف يرىٰ الغنىٰ يحيط به ؟ ما الغنىٰ عنده ؟ ذهب ؟ أم بضائع ؟ أم ...؟ إنّ الغنىٰ لا يقتصر علىٰ المال ولكنّه نتيجة لما يحصل بيد الإنسان فيستغني، والغنىٰ في قصيدة الشماخ يحيط

بصاحب القوس، إنّ الرّجل لا يرىٰ ظواهر الواقع قط بل يرىٰ مآلاتها، فهو يجري تأويلات لما سيكون عليه وضعه، والغنىٰ تحيط أسبابه بالإنسان، هكذا يفعل المجاز فعله ويصنع الطّلسم الكوني علىٰ رؤية إنسانية لا تملك من المعرفة سوىٰ فطرة اللغة، كذلك كان المجاز في الجاهلية يعكس فطرة لغويّة، ورغبة في استجلاء حقيقة ظواهر الواقع، لإنسان يرغب في المعرفة يسأل ويبحث عسىٰ أن يجد جوابا، وكانت قصائد الجاهلية أسئلة لم يجد أهلها أجوبة لما يرومونه، ولذلك كان المجاز سؤالا يستدعي الفهم، وكان الفهم يؤجّل الجواب في غالب الأحيان، ولقوّة الملكة اللغويّة في الجاهلية، نجد المجاز يصنع الظواهر الواقعيّة، فالمهلهل يبكي كليبا وقد ماتت القبيلة بموت كليب، فلا يهمّه بعد من مات فهم في نظره أموات بعد أخيه، وهو الآخر رهين الموت، والمجاز ضمن ملكة اللغة عندهم لا يفارقونه، وعلاقاته هي علاقات تسمو علىٰ علاقات عناصر المعجم في الحقيقة اللغوية، ولكنّها تنجح في تكوين تآلف بين المتناقضات حتىٰ تغدو بفعل قوّة لغوية فطرية هي حقيقة الظاهرة في الواقع، علىٰ عكس ما سنلحظه في العصر العباسي أين نجد العقل الشعري العربي يقيم التناقض بين المتآلفات، ويؤلّف بين المتناقضات بشكل صارخ وليس

بشكل هادئ ومنسجم غاية الانسجام حتىٰ كأنّه الطبيعة ماثلة أمام العيان، هكذا نقرأ شيئا من العصر الجاهلي بعيون المجاز .

•نزول القرآن الكريم وبلاغة المجاز :

ويأتي زمن البعثة، وهاهو القرآن الكريم ينزل علىٰ نبيّنا محمّد صلىٰ الله عليه وسلّم، وها هي العرب تطالع جديدا من البيان لا عهد لها به من قبل، إنّه كلام الله تعالىٰ، والعرب تسمع لهذا البيان، بيان الحقيقة الإلهيّة التي لم تطرق أسماعهم من قبل، وكلّ عربي يملك سليقة لغويّة سليمة في ذلك الزمن أيقن أنّ هذا ليس في مستطاع البشر، إنّها لغتهم وهؤلاء شعراؤهم وهذا شعرهم وهذه خطبهم ومنافراتهم، أين كلّ هذا من القرآن الكريم ؟ لقد سما وعلا وقهر وظفر وتحدّىٰ وأعجز فلم يبق لهم مدار حجّة، فعجزوا فكان السلاح بينهم وبين رسولنا المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وسلّم، فانتصر ونصره الله، البيان القرآني يصنع النصر في المناظرة العقلية والبيانية، وبالهدىٰ الرباني يصنع النصر في المعركة .

وقد طلع عبد القاهر الجرجاني رحمه الله علىٰ البلاغيين بنظريّة النّظم التي تكشف أسرار جمالية وتفوّق القرآن الكريم، ليس فقط في

القرآن بل تتعدّاه نحو النص الشعري، و " إذا كان النّظم سرّ الشعريّة، فما يكون سرّ النّظم ؟ إنّه كما يجيب الجرجاني : المجاز "[1]

ويقول في ذلك عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة من علم البيان: " إنّ محاسن الكلام في معظمها، إن لم نقل كلّها متفرّعة عن صناعة المجاز وأدواته وراجعة إليها "[2]

لمّا نزل القرآن سمعوا فيه حقائق إلهية كبرى، ولها سبل بيانية تعرض من خلالها تلك المعاني الجليلة العظيمة، ولمّا كانت الحقائق القرآنية صالحة لكل زمان ومكان فالقرآن الكريم عماد الشريعة الخاتمة، إذ من مقاصدها السامية أن تكون على اتصال دائم بالحياة وتطوّراتها وهذا يقتضي فتح أبواب نصوصها للاستنباط والاجتهاد وإنتاج الفهم، وثانيا تعويد العلماء وحملة القرآن والعلم الشرعي وعلم البيان على التدبّر والتنقيب والبحث وهذا سبب وجود المتشابه في القرآن على رأي الطّاهر بن عاشور في التحرير والتنوير لمّا أخذ في تفسير الآية 7 من آل عمران، وقد ذكر مراتب المتشابه ذلك الذي لم يجزم فيه أحد بمعنى وترك للاحتمالات، وجعل المتشابه عشر مراتب

[1] أدونيس، الشعريّة العربيّة، دار الآداب، ط2، 1989م، ص : 46.

[2] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص : 26.

والمرتبة التي تعنينا نحن في مقامنا الكريم هذا هي المرتبة الخامسة والثامنة التي يقول عنها :" خامستها : مَجازات وكنايات مستعملة في لغة العرب، إلاّ أنّ ظاهرها أوهم معاني لا يليق الحمل عليها في جانب الله تعالىٰ : لإشعارها بصفات تخالف كمال الإلهية، وتوقّف فريق في محملها تنزيهاً، نحو: { فإنّك بأعيننا } [الطور : 48] { والسماء بنيناها بأيدٍ } [الذاريات : 47] { ويبقىٰ وجه ربّك } [الرحمن : 27] .... و ثامنتها : أساليب عربية خفيت علىٰ أقوام فظنّوا الكلام بها متشابهاً، وهذا مثل زيادة الكاف في قوله تعالىٰ:{ ليس كمثله شيء} [الشورىٰ: 11] ومثل المشاكلة في قوله : { يخادعون اللهَّ وهو خادعهم } [النساء : 142] فيعلم السامع أنّ إسناد خادع إلىٰ ضمير الجلالة إسناد بمعنىٰ مجازي اقتضته المشاكلة ..." (الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير)

إذن فقد كان المجاز سبيلا للحقائق الكبرىٰ، وقد أدرك العرب ذلك لأنّ فطرتهم اللغويّة أخذتهم إلىٰ هذا الأمر، وقد مارسوا هذا النوع من الاستلزام والاستنباط والوصول إل الدلالة والفهم، ولذلك لمّا سمعوا آيات من مثل : " وإذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور، تكاد تميّز من الغيظ " وقوله تعالىٰ : "ولمّا سكت عن موسىٰ الغضب أخذ الألواح " كانت الدلالة مبيّنة في فهومهم، وهم الذين

كلّموا الديار وساءلوها، ورأوا الليل جملا يتمطّى بصلبه ويردف أعجازا وينوء بكلكل، وآخر تكلّمه الوحش وذاك يعرف مشاعر فرسه فيكلّمه ويبثّه الشكوى، لكن القرآن ارتفع وعرض الحقائق الإلهية وليس حقائق ظواهر الواقع، فالحقائق الإلهية مطلقة لأنّ الخالق هو من يتكلّم عن الأرض والسماء ومظاهر الطبيعة وآيات خلقه وعن مشاعر الأشخاص، " وهذا هو الصبح يتنفّس فيخيّل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التي تنفرج عن ثناياه وهو يتنفّس فتتنفّس معه الحياة ويدب النشاط في الأحياء على وجه الأرض والسماء"[1]

هكذا رآها العرب وهكذا تمثّلت صورة الحقيقة كما يجدونها في حقيقة ظواهر الواقع، ومعراج السلوك إليها وتصويرها هو المجاز، الفرق بين المجازين في نظري يكمن في نوع الحقيقة التي يعرضها والدلالة التي تستنبط منه، فالمجاز عند الإنسان يعرض حقيقة ظواهر الواقع الاحتماليّة، والمجاز القرآني يعرض الحقائق الإلهية المطلقة النهائية لأنّ خالق الكون هو العليم بها.

---

[1] سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص : 73

- **المجاز في صراع العقيدة و حرب السلاح والحب:**

أليست الحياة مجازا بين ضفّتين ؟ أليست اللغة مجازا بين الروح والعالم ؟ إنّ العالم الكبير الذي نعيش فيه مجازات بين عوالم صغرى ن والذكي هو من يحسن فهم العلاقات بين هذه المجازات، وأيسر سبيل لفهم لعبة مجازات الحياة أن نتقن مجازات اللغة، وهكذا عرف العرب الحقيقة، فالإسلام هو مجاز/ جسر النجاة بين عالم الدنيا الاختباري وبين عالم الآخرة الاعتباري، ومن وقع في إشكال وتردّد بين الحق والباطل والتبس عليه الأمر اتّخذ طريق المجاز فوصل إلى الحق، كذلك ركب كعب بن زهير قصيدته حتى بلغ الحق أمام الرسول صلى الله عليه وسلّم.

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُجزَ مَكبولُ
وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إِذ رَحَلوا إِلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكحولُ

بهذه القصيدة كان دخول كعب إلى الإسلام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلّم، وبين صحابة رسول الله رضوان الله عليهم، وقصيدة كعب رضي الله عنه تتوزّع بين ذكر سعاد والناقة وموقفه أمام الرسول عليه الصلاة والسلام.

مقدّمة كعب لم تكن غريبة عن العرب ولم تكن غريبة عن الرسول وعن جميع السامعين فمئات الشعراء افتتحوا قصائدهم بـ " بانت سعاد" ولكن كعبا بانت منه سعاد وقلبه متبول سقيم من الحب، ذاك الحب الذي لم يدم ولم يكن صادقا، إنّها صورة مجازيّة كبرىٰ تضرب في أعماق الفكر والوجدان، واسمع كعبا يقول :

فيالها خلّة لو أنّها صدقت

هذا الحب للعهد القديم، لعهد الجاهليّة الذي لم يصدق أصحابه فيما وعدهم فلم يجدوا سوىٰ تناحر فيما بينهم ولم يحقّق لهم مشروع وحدة فيما بينهم، ممّا جعل كعبا يدخل في يأس كبير بعد أن أخلفت سعاد وبدّلت وكانت مواعيدها الأكاذيب، ولم ير نفسه إلا مقتولا في قوله : "إنّك يا بن أبي سلمىٰ مقتول" فالقصيدة هي قصّة أمل ويأس، إنّها المنفرجة الأولىٰ في تاريخ الشعر العربي، حتىٰ يؤمّل العفو من الرسول عليه الصلاة والسلام، فيمدحه ويغرق في حقيقة صورة الرسول فهو سيف يستضاء به :

إِنَّ الرَسولَ لَسَيفٌ يُستَضاءُ بِهِ　　مُهَنَّدٌ مِن سُيوفِ اللهِ مَسلولُ

فالرسول ليس مشبّها بالسيف فقط، بل ويستضاء به، سيف للحق وسيف للهدىٰ فيه ضياء كالسّراج، قمّة التعبير المجازي، وإنّ

المجازات التي نجدها في شعر العهد الإسلامي تعانق المعنى القرآني فتستضيء به وتسير على نهجه، فقد وجدت السبيل إلى ما كانت تقف عنده وتصفه بالسّحر، قد وجدت كيمياء الغرابة التي أصبحت تصنع من المألوف إكسير الأعاجيب، والقارئ أو السامع هو الآخر عليه أن يحسن صناعة الفهم فالإشارات دقيقة وليست سطحيّة .

ويقول محمّد محمّد أبو موسى : "والاجتهاد في الوصول إلى أقاصي ما تترامى إليه أضواء الدلالة أمر أوجبه الدرس البلاغي، لأنّ البلاغة عند الشيخ ملخّصة في حسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة والدلالة تعني طريقة الإبانة وهي غير المدلول وغير الدال وإنّما هي الإبانة عن المعنى بالتصريح بدل التلويح أو العكس أو الحقيقة أو المجاز"[1] .

وكانت فصول الحب في العصر الأموي نموذجا فذّا للصور الشعريّة المجازيّة عند العشاق العذريين منهم والحسّيين، فنجد العذري يشخّص البلوى من الحب ويجعلها منازعا في الحياة، وتجد الغزل الحسي يصنع مملكة اللذة في قصّة مجازيّة أين يستهوي المجاز

[1] محمد محمد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، مكتبة وهبة، ط4، 2012م، ص : 89.

السّرد ليصبح شعرا مشربا طريقة الحكاية على رأي حازم القرطاجنّي.[1]

واسمع إلى محبّ (مجنون ليلى)يشكو ويبث هواجس المحبّة حتى خالطه الجنون في عصر هيّأت ظروفه المكانيّة والتاريخيّة لهؤلاء المحبين أن يدخلوا محن العذريّة:

مَتى يَشتَفي مِنكَ الفُؤادُ المُعَذَّبُ — وَسَهمُ المَنايا مِن وِصالِكِ أَقرَبُ

فَبُعدٌ وَوَجدٌ وَاِشتِياقٌ وَرَجفَةٌ — فَلا أَنتِ تُدنيني وَلا أَنـا أَقرَبُ

كَعُصفـورَةٍ في كَفِّ طِفلٍ يَزُمُّها — تَذوقُ حِياضَ المَوتِ وَالطِفلُ يَلعَبُ

فَلا الطِفلُ ذو عَقلٍ يَرِقُّ لِما بِها — وَلا الطَيرُ ذو ريشٍ يَطيرُ فَيَذهَبُ

وَلي أَلفُ وَجهٍ قَد عَرَفتُ طَريقَهُ — وَلَـكِن بِلا قَلبٍ إِلى أَينَ أَذهَبُ

فالفؤاد معذّب لا يرتوي حبّا من الحبيبة، والمنايا تترصّد من باب الوصال المنعدم هذا مجاز يصل المحبّ بمقام البوح بكل الأشجان، ويجتمع عليه أعداء "بعد ووجد واشتياق ورجفة " وهذه كلّها تقف عليها آمرة ناهية حبيبة لا تدني حبيبها والأعداء يقفون ليصدّوه ويمنعوه الاقتراب فلا يقربها، ثم يجعل لحالته صورة يجتاز منها إلى حقيقة الوجدان الكبرى فهو كعصفورة يلعب بها طفل عدم جناحاها،

[1] ينظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني في حديثه عن إشراب المعاني بعضها لبعض.

فلا تستطيع الطيران والطفل لا يعقل فلا يسرّحها لتعود حرّة طليقة، كذلك هو مجنون بني عامر قلبه بين يدي من لا تعرف قيمة حبّه فلا تدنيه إليها، وهو عديم الجناح فلا يملك أمر قلبه فلا يسعه الابتعاد عن حبّه لها، فيذوق من حياض الموت وهي تلعب، ومن صفات الحبيبة أنّها لعوب ذات دلال وغنج، كذلك ترتسم صورة بديعة للواعج الحب، فانظر كيف تمازجت عناصر اللغة والمعنى ومقاصد العبارة لتصنع إكسيرا من كيمياء المحبّة يكون مجازا لكل دلالات الهيام والعشق القاتل.

في هذا العصر تحوّل المجاز بسبب تلطيف العبارة القرآنية لجوانب الصورة الشعريّة إلى سرد متّصل بالوجدان تحلّل من خلاله العواطف، وانظر إلى ما قاله الأستاذ البهبيتي رحمه الله فهو يرى أنّ هذا المذهب له جذور في الشعر الجاهلي ولكنّه بلغ قمّته مع العصر الإسلامي خاصة الأموي مع العذريين حين أخذوا في سبك شعرهم على منوال سرد القصّة العاطفيّة وتحليل العواطف من خلالها إذ يقول البهبيتي : " ولكن أخطر مظهر من مظاهر هذه المدرسة هو أنّ أحدهم لم يكن شاعرا فحسب، وإنّما كان أيضا بطلا لقصة شعبية تدور حول حبّه، ومن هنا وجدت في هذا العصر القصّة العاطفيّة التي تدور حول الحب

وبطلاها ينتهي حبّهما بهما إلى الهلاك ... وعندي أنّ هذا النوع من القصص هو صورة من الصور الأدبية الكبرى التي اتّضحت سماتها في هذا العصر العاطفي "[1] .

إنّ أخذ تاريخ الشعر العربي من باب التأريخ للمجازات والصور باب يغني الأدب العربي ويصنع له منهاجا فنيّا متفرّدا لا يغلّب الأحداث عليه بقدر ما يجعل التاريخ تاريخا للأحداث الأدبيّة، وليس أن يكون الأدب جزءا من التاريخ تنعكس فيه أحداثه وفقط، وينبغي ألا نخلط بين الأدب في التاريخ وبين تاريخ الأدب باعتباره تتبّعا للتطوّرات الطارئة على صوره وأنواعه وأساليبه ومثلما قال محمّد الكتّاني:"من الضرورة التمييز بين النظر إلى الأدب باعتباره نصوصا والنظر إلى الأدب باعتباره أحداثا أو ظواهر"[2]

وقد جنى على أدبنا العربي نقل مناهج الغرب في التأريخ دون دراية وتمحيص وكذلك في النقد، فأصبح عندنا نقد ممسوخ ونسخة غربيّة بلسان عربي غير فصيح فلا بد من النظر إلى أدبنا ونقده من باب بلاغته

[1] نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي، دار الفكر، ص: 166.

[2] محمد الكتاني، مطارحات منهجيّة حول الأدب والنّقد وعلاقتهما بالعلوم الإنسانيّة، دار الثقافة – المغرب، ص: 108.

التي أسعفت علومها وآليّاتها من تقدّمونا بكشف خبايا هذا الأدب وإدراك مقاصده وتذوّق صوره.

انظر إلى مسالك المجاز في قول الشاعر "جران العود النميري" حين يقول في قصيدته التي مطلعها:

طَرِبنا حينَ أَدرَكَنا اِدِّكارُ وَحاجاتٌ عَرَضنَ لَنا كِبارُ

وذلك عندما يغالبه الزمن فيغلبه فيتمنّة لو أنّ الليل مدّ فيه بليل آخر ليتمتّع بالحبيبة، فهو في جهاد لا ينتهي يغالب الزمن فيبقى مغلوبا وذلك في قوله :

إِذا نادى الُمنادي باتَ يَبكي حِذارَ الصُبحِ لَو نَفَعَ الحِذارُ

وَوَدَّ اللَيلُ زيدَ عَلَيهِ لَيلٌ وَلَم يُخلَق لَهُ أَبَداً نَهارُ

يَرُدُّ تَنَفُّسَ الصُعَداءِ حَتّى يَكونَ مَعَ الوَتينِ لَهُ قَرارُ

فالشاعر جران العود يحالفه الليل ولكن يسابقه النهار فيخيب مسعاه فيما يريد، وهنا نجد الصورة صورة رجل متلهّف مغرق في ما يلتذ به، ويجتهد في إدراك الحياة بكل ما فيها ويبقى الزمن عدوّا له .

وإنّ صورة العذريّة أو الحسيّة في الشعر لهما حقيقة واحدة ويقول في ذلك أدونيس : "وفي الجسديّة شأن العذريّة بعد روحي ونار

سحريّة تدفئ وتضيء فالحب الجسدي إله يعبد وإن كان إلها ملعونا ... تتمثّل لنا الحساسيّة الشعريّة العربيّة على صعيد الحب جدلا بين اللذة والألم، بين التخلي والتملّك، بين الغبطة والحسرة"[1]

إنّ المجازات في شعر العصر الأموي خاصة الغزلي منه والبكائي الشيعي كذلك، يوحي بتفسيرات نفسيّة تتعمّق النفس البشريّة، وهي لا شك تأخذ حظّها من بلاغة القرآن الكريم وتسبر أغوار الملكة البلاغية العربيّة التي لم تدوّن ولم تقعّد قواعدها بعد، ويحضرني ما ذكره الأستاذ الخولي في مناهج التجديد في النحو والبلاغة[2]، إذ أطلّ على الفكر البلاغي بمسألة الإعجاز النفسي في القرآن الكريم وأنّ مظاهر البلاغة من تقديم وتأخير وتكرار وإيجاز تؤخذ من باب النفس الإنسانيّة، وقد نظرت فوجدت الشعر الغزلي العذري خاصة منه يتحرّى نوازع النفس وتقلّباتها فيرسم عليها من خطط البيان والمجازات ما يجعل الموقف العاطفي ناطقا بسيمياء الصورة بالغا مقصده ممّا يروم، وماهذا إلا لتأثير المجاز القرآني في العقليّة الشعريّة والوجدان البياني للشاعر، واستمع إلى جميل بثينة يقول لحبيبته:

---

[1] أدونيس، مقدّمة للشعر العربي، دار العودة بيروت، ص : 22.

[2] ينظر: أمين الخولي، مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير، دار المعرفة، ط1، 1966م ص: 203،

حَلَفتُ لَهَا بِالبُدنِ تَدمى نُحورُها لَقَد شَقِيَت نَفسي بِكُم وَعُنيتُ
حَلَفتُ يَميناً يا بُثَينَةُ صـــادِقاً فَإِن كُنتُ فيها كاذِباً فَعَميتُ
إِذا كانَ جِلدٌ غَيرُ جِلدِكِ مَسَّني وَبــاشَرَني دونَ الشِعارِ شَريتُ
وَلَو أَنَّ داعٍ مِنكِ يَدعو جِنازَتي وَكُنتُ عَلى أَيدي الرِجالِ حَيِيتُ

إنّ القسم إنشاء غرضه التوكيد يسعى خفيّا من غير طلب معلن إلى المخاطب بأخذ يده إلى تصديق قوله وما يدّعيه، ليس فقط القسم بل للمقسم به ههنا مكانته العميقة، فقد أقسم بما ينحر ودماؤه تهرق في سبيل المعبود، كما تهرق وتسيل دماء محبّته من حياته فداءا لحبيبة تصغي ولا تجيب، إنّه ثمن الشّقاء، والبيت الأول بلاغة نظمه تلتحم بالعواطف النفسيّة التي تأتزر بين كلماته وأساليبه، ويكون التكرار بـ حلفت والعمى جزاء الحلف الكاذب فليس جميل ممّن يخون فيلامس غيرها ويصوّر لها صورة نفسيّة تصنع له صدق موقفه فيما يدّعيه وهي صورة مغرقة في المجاز حتى لا يستبينه إلا ذو عقل وألقى السمع، فالحياة تعود إليه لو دعته بثينة وهو في جنازته، إنّ هذه المجازات الكبرى التي تعقد للكلام معاقد مع الصورة فتبلغ مقاصد الوجدان فيما يريد، ماكان للعربي أن يصوغها بهذه البراعة لولا تأثّره بالأسلوب النفسي للقرآن الكريم .

وهذا مجنون ليلىٰ يجعل من نفسه زجاجة تبين عمّا تحتويه الأضالع في قصيدته التي يقول فيها :

لِيَ اللَيلُ هَزَّتني إِلَيكِ المَضاجِعُ ... نَهاري نَهـارُ الناسِ حَتّى إِذا بَدا

وَيَجمَعُني وَالهَمَّ بِاللَيلِ جـامِعُ ... أُقَضّي نَهاري بِالحَديثِ وَبِالمُنى

كَما ثَبَتَت في الراحَتَينِ الأَصـابِعُ ... لَقَد ثَبَتَت في القَلبِ مِنكِ مَحَبَّةٌ

فُؤادي وَلَكِن لِلعِتابِ مَواضِعُ ... وَلَو كانَ هَذا مَوضِعَ العَتبِ لَاشتَفى

فللشاعر وقت خاص يجتازه، ويجمعه بالليل جامع، وكأنّه إنسان يجتمع به ليفضي إليه بهمّه، فلقد ثبتت في قلبه مودّة لها صورة ثباتها كالأصابع في راحتيه، فالقلب منه راحة وهي أصابعه، فلا يحسن الكف دون أصابع ولا تكون الأصابع في الوجود دون كف، فتلازم وجودي بينهما، هكذا كان يشعر هذا الرّجل، ببلاغة نفسيّة عظيمة يحملها المجاز، فالمودّة سبب لوجود هذه المرأة، ولولا المودّة ماكانت ولا تكون لها ذكرىٰ.

ويطول بنا استقصاء مواضع المجاز وبلاغاته الكبرىٰ في العصر الأموي، ولو وجّهنا رحلنا إلىٰ النقائض وشعر الطالبيين وبكائيات الهاشميين وشعر السياسة لرأينا أعاجيب يفصح عنها المجاز في كل

قصد لشاعر، ونرجو من الله أن يوفقنا لتقديم دراسة تجمع تاريخ المجاز من باب الشعر والسرد والله الموفّق.

- **المجاز سبيل اللذة ومنهج العقل ومعراج العرفان في العصر العبّاسي :**

كنت سأفرد تاريخ الأدب من باب المجاز بكتاب خاص وأنتزع هذه الفصول لمّا كبرت واتّخذت منحى البحث المنفصل، ولكن أبيت إلا أن أثبتها هنا رغبة منّي في عرض فكرتي هذه على كل ذي عقل، عسى أن تحظى برؤية ناقدة فاحصة منه ترشدنا إلى أخطاء تغافلنا عنها.

نعم إنّ القصيدة العبّاسيّة خاصّة منها تلك التي سارت في إطار التّجديد اتّخذت مراسم اللذّة والنشوة لبلوغ حاجات النّفس الشعريّة، **وهذا أبو نوّاس يستل روح الدنّ في لطف حيث يقول :**

ما زِلتُ أَستَلُّ روحَ الدَنِّ في لُطفٍ وَأَستَقي دَمَهُ مِن جَوفِ مَجروحِ
حَتّى اِنثَنَيتُ وَلي روحانِ في جَسَدٍ وَالدَنُّ مُنطَرِحٌ جِسماً بِلا روحِ

إنّها صورة غريبة يصنعها مجاز الأرواح في لذّة سكرها، فللدنّ روح يستلّها أبو نواس فكأنّه ملك مكلّف بالأرواح، أرواح تسكن الخمر لتشيع الحياة في جسد شاربيها، وشاربها له روحان روح تطلب اللذة

وأخرىٰ من الخمر تستجيب لها، "وللغة المجازيّة درجات أرقاها الاستعارة ولا يكون للصورة هنا قوّة تهزّ وتحرّك إلا إذا كان الشبه مقرّرا بين شيئين مختلفين في الجنس"[1] .

لقد توحّد في التجربة الشّعريّة في هذا العصر كل من العاطفة والوعي العقلي والنسيج البلاغي للنص، وغدا المجاز بصوره إكسيرا يعبّر عن كيمياء المزج بين هذه العناصر، حيث يتعانق البديع مع الفكر عند كلّ من أبي نواس وأبي تمّام وحتّىٰ المتنبّي، عندما نرىٰ تعانق رفض التقاليد مع الإقبال علىٰ المحرّمات ويصهر جميعها في شراب الشعر وكأسه، فالكأس تجاوز للواقع الذي يرفضه أبو نواس، ويرفضه كذلك بشّار ومسلم بن الوليد ومن تابع طريقهم، لقد عاش هؤلاء حياة التّجاوز في الواقع وفي الشعر، وكانوا بين ظهراني قوم يعيشون المجاز في نصوص الإعجاز، وأقصد بهم المعتزلة، لقد كان العصر العبّاسي (وهو العصر الذّهبي للحضارة الإسلاميّة) عصر المجازات بتعبير خالص من المبالغات، عصر تجاوز فيه العقل العربي اللسان

---

[1] أدونيس الشعريّة العربيّة، ص : **47**.

الإسلامي المنهج والمقصد حواجز المادّة إلى فهم الأعماق المتوارية وراء اللفظ ووراء العالم المحسوس، فطرق الفارابي وابن سينا عالم الفيض والإشراق، وأخذ أبو حيّان التوحيدي في مقابسات الفكر يسافر عبر مدائن المعارف والعلوم، كان العصر عصر شخصيّة عربيّة إسلاميّة تطوّع الوافد ولا ستهلكها تتحكّم في اليوناني ولا يتحكّم فيها، إذ أمّتنا في عهدها ذلك كانت أمّة الاستعلاء، لقوله تعالى :{أنتم الأعلون}، فما كان اليوناني الوافد ليقدّس دون فهمه فهما عربيّا بلسان عربي وبمقاصد إسلاميّة، وإنّ النّاظر في آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي رحمه الله سيدرك كيف مزج الرّجل بين رأي أفلاطون في الجمهورية وبين رأيه في مسألة الإمامة ليغلّب الإمامة فيغدو لها السلطان المطلق، وهذا ابن سينا وابن رشد تلقّيا نظريّة المحاكاة الأرسطيّة وجعلا منها نظريّة عربيّة بالبديع والبيان العربي في دراسات تطبيقيّة تستجلي محاور التخييل اللغوي في البليغ العربي عبر الشعر، وإنّنا لنعجب من تهجّم بعض الغافلين المستغفلين والمغفّلين الحمقى في غير قليل من الأحيان عندما يطالبون ابن رشد بإنتاج محاكاة أرسطو وترجمتها وفهمها مثلما

كانت عند اليونان ومطابقة لها، ويعيبون على ابن رشد عدم مطابقة فهمه لمحاكاة أرسطو، والحق مع ابن رشد رحمه الله الذي كان فقيها قاضيا عارفا بلسان العرب وشعرهم وآدابهم وتاريخهم، مستعليا بالله وبكتاب الله وسنّة رسوله ومنهج الشريعة التي كان يقضي بها مستعليا بكل هذا على كل نتاج فكري وافد من أمّة غير مسلمة، إنّها عقيدة الاستعلاء: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين } آل عمران 139.

وكان المتصوّفة على أبواب حضرة القدس، يتجاوزون عالم الظاهر إلى عوالم الحقيقة، فالحلّاج رحمه الله صنع في نصوصه منطقا جديدا للمجاز يتلاحم فيه الحقيقي مقصدا مع الخيالي منطلقا، فهو الضمير المستتر والأنا عين التّجلي، فغدت الاستعارات متنازعة بين الأنا الذي لا إنّيّة له إلا بإضمار " هو " والضمير عين الحقيقة وفيه تتجلّى، هكذا تكلّم الحلّاج ومن سلك طريقه من العارفين، لقد وقعوا عشّاقا

لخطاباتهم، إنّ في هذا المقام يعشق الخطاب، لأنّه أثر للتجربة العرفانيّة الكبرى[1] .

---

[1] بتوفيق الله أحضّر لدراسة عن بلاغات التصوّف وللمجاز مركز الكلام في ذلك، أسأل الله أن يعين عبده على هذا الحمل الذي ما كنت لأحمله لولا عيشي بين أهل التصوّف والعرفان وأصحاب الأحوال، ورؤيتي لأهل الولاية منهم والصالحين، جعلنا الله من عباده المتّقين السائرين على مدارج السالكين .

الفصل الثاني :

إشـــارات وتنبيهــات:

توجيه:

هذه الدّراسة تبيّن فعاليات هذه الكيمياء الغريبة في القرآن الكريم التي تعدّ من دلائل الإعجاز وأسرار البيان و تولّد الدلالات.

إشارة 01: تحقيق مقالة ابن حزم رحمه الله في أنّ الله تعالى نقل كلمات عن موضوعها في اللغة إلى معنى آخر فهي مجاز .

اشتهرت مقولة قديمة عن الإمام ابن حزم الأندلسي تقول : " قلم ابن حزم كسيف الحجّاج "، والرّجل كان لا يأبه بمنزلة معارضه، فقد انتقد مالك بن أنس وأبا حنيفة رحمهما الله وردّ أقوالهما بلسان صريح، بل ويتعدّى ذلك إلى اتّهامهم في اجتهادهم ونظرهم وفهمهم، هكذا كان العقل الإسلامي لا يقدّس الرّجال بل ينظر إلى أقوالهم فما وافق الحق أخذ به وما فارقه ردّه على أهله، وكان يصل إلى حدّ التجريح ولا يبالي في الحق لومة لائم، يقول عنه أحمد أمين : "والحق عندنا أنّ ابن حزم كان موضع إعجاب في حريّة رأيه ووقوفه عند النصوص مهما خالفه الكبار "(أحمد أمين، ظهر الإسلام،ج3، ص 47) .

وكان لابن حزم في كل مسألة باع، وفي المجاز تفرّد كذلك برؤية خاصّة به، فقد ذكر في كتابه " الإحكام في أصول الأحكام " في الباب الثامن عشر الذي خصصة للمجاز والتشبيه أنّ النّاس اختلفوا في

المجاز بين مجيز له في الكتاب والسنّة وآخرين منعوه، وأنّه إذا قام هناك دليل نصي على النقل فهو مجاز وإن لم يقم دليل فهو الحقيقة، ثم يبيّن رأيه بأنّ المجاز : يدخل كلام الله تعالى في الآيات التي تمّ نقل ألفاظها عن موضوعها اللغوي، ولم يأمرنا الله أن تعبّد بألفاظها بل بمعانيها كآية خفض جناح الذل للوالدين، ولكن إذا تمّ نقل اللفظ عن موضوعه اللغوي ولكن طالبنا الله بالتعبّد بلفظه فذلك حقيقة وليس مجازا، يقول ابن حزم رحمه الله: " فكل كلمة نقلها تعالى عن موضوعها في اللغة إلى معنى آخر، فإن كان تعالى تعبدنا بها قولا وعملا كالصلاة والزكاة والحج والصيام والربا وغير ذلك فليس شيء من هذا مجازا، بل هي تسمية صحيحة واسم حقيقي لازم مرتب من حيث وضعه الله تعالى، وأما ما نقله الله تعالى عن موضوعه في اللغة إلى معنى تعبدنا بالعمل به دون أن يسميه بذلك الاسم، فهذا هو المجاز، كقوله تعالى: ﴿ **(واخفض لهما جناح الذل من الرحمة)** ﴾ فإنما تعبدنا تعالى بأن نذل للأبوين ونرحمهما، ولم يلزمنا تعالى قط أن ننطق، ولا بد فيما بيننا بأن للذل جناحا، وهذا لا خلاف فيه، وليس كذلك الصلاة والزكاة

والصيام، لأنه لا خلاف في أن فرضا علينا أن ندعو إلى هذه الأعمال بهذه الأسماء بأعيانها ولا بد"[1]

إنّ فعل نقل اللفظ عن موضوعه الأصلي قائم من الله تعالى، فالله تعالى هو من نقل اللفظ من موضعه الأصلي إلى موضع آخر، وليس للإنسان في فهمه كذلك دخل، ويقرّر في هذا الكلام حقيقة مهمّة ستكون معتمدة في نظريّتنا هذه، وهي أنّ مجازية الآيات لا يؤدّي إلى القول بكذبها أو عدم صدقها أو إحالتها، بل هي حقائق إلهية وأوامر إلهية، جاءت عن طريق المجاز لمزايا فيه لا توفّرها الحقيقة اللغويّة، وهذا ابن حزم يقول في الرد على من قال بأنّ المجاز كذب : " وليس نقل الله تعالى الاسم عمّا كان علقه عليه في موضع ما إلى موضع آخر كذبا بل هو الحق بعينه"[2]، فالمجاز لا يضاد الحقيقة الإلهيّة .

بل يذهب ابن حزم أبعد من ذلك عندما يقرّر بأنّ المجاز في الخطاب الإنساني إذا قام عليه برهان فهو واقع وهو حق وليس كذبا، فهو يؤمن بأنّ اللغة فيها توقيف من الله تعالى وفيها اصطلاح بشري، وأنّ الله تعالى يوقّف وإذا شاء ينقل الاسم إلى معنى آخر ولا كذب في

[1] ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتاب العربي ج4، ص 413

[2] المصدر نفسه، ص: 414.

ذلك، لأنّه من الله تعالى والله هو الحق.أمّا في الخطاب الإنساني " فإنّما يكون كاذبا من نقل منّا اسما عن موضوعه في اللغة إلى معنى آخر يلبس به بلا برهان "، والبرهان هو عمدة التصحيح للمجاز، وكأنّه يشير إلى القرينة المصحّحة للعلاقة، وكذلك الغرض من وقوع هذا المجاز إنّما هو للإلباس والتدليس.

ويبيّن ابن حزم رحمه الله من خلال الآيات احتمالات المعنى المستنبط من المجاز، ويوازن بين من أخذ المعاني على حقيقتها اللغويّة ومن أخذها من مسلك المجاز، فقد وافق على الاحتمالين بأنّهما ممكنان في مسألة " اسأل القرية " بين من قال بمجازيّتها ومن قال بأنّ يعقوب عليه السلام لو سألها لأجابته، ولكن في قوله تعالى :" جدارا يريد أن ينقض " يقول: "فقد علمنا بضرورة العقل أن الجدار لا ضمير له، والإرادة لا تكون إلا بضمير الحي - هذه هي الإرادة المعهودة التي لا يقع اسم إرادة في اللغة على سواها - فلما وجدنا الله تعالى، وقد أوقع هذه الصفة على الجدار الذي ليس فيه ما يوجب هذه التسمية، علمنا يقينا أن الله عز وجل قد نقل اسم الإرادة في هذا المكان إلى ميلان الحائط، فسمى الميل إرادة، وقد قدمنا أن الله تعالى يسمي ما شاء بما

شاء، إلا أن ذلك لا يوجب نقل الحقائق التي رتب تعالى في عالمه عن مراتبها"[1]

ويقف ابن حزم مع آيات سؤال جهنّم وجوابها ويبدو أنّه يقيس عليها ما كان من أمور الآخرة بأنّها حقائق، ونميل إلى هذا الرأي، لأنّ الواقع في ذلك الحين يختلف عن واقعنا، وهي حقائق إلهية نشهدها بقدرة الله تعالى، وإن كان هناك من يقول بأنّها حقائق واقعة لا بد من ذلك، وقد جاءت عباراتها بطريق المجاز لأنّ الحقيقة اللغويّة لا تستطيع أن تحمل هذه الصور التي تجل عن تصور الإنسان، وهي حق ومن الله الحق .

إشارة 02: النبيّ ﷺ يكشف المجاز ويبيّن الدلالات والمعاني.

ادّعى منكرو المجاز مطلقا أنّه لا دليل على قيامه في النقل، وكأنّ هناك دليلا قائما على قيام مصطلحات العلوم الشرعيّة، فجميعها حادث في الملّة، كالأصول وعلم الحديث والنحو، وكذلك المجاز، موجود عند العرب منذ الجاهلية، ولم يقم اصطلاحه ونظرياته إلا بعد أن تقدّم العرب في الحضارة، وهذا يصل إليه أيّ باحث منهجه علمي،

[1] الإحكام في أصول الأحكام، ص : **416**.

وبعض العبارات من بعض هؤلاء المنكرين تنزل بنا إلىٰ بديهيات البحث، نأسف علىٰ ذلك.

ومن أبسط الأدلّة علىٰ وجود المجاز وإدراك الرسول صلىٰ الله عليه وسلّم لذلك وقد تولّىٰ هو بنفسه تبيان الدلالة فيه وذلك في حديث رواه الشيخان عن قبض العلم ورفعه، وندرك أنّ النبي عليه الصلاة والسلام تولّىٰ هذا الأمر لأنّه تعلّق بالعلم وهو أمر مجرّد، والعرب حديثة معرفة بالعلم الشرعي وأخذه ومدارسته.

نص الحديث : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ قَالَ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا.

قَالَ الْفِرَبْرِيُّ حَدَّثَنَا عَبَّاسٌ قَالَ حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ هِشَامٍ نَحْوَهُ.(صحيح البخاري، صحيح مسلم، باب العلم) .

يقول النووي في شرحه علىٰ صحيح مسلم : " هَذَا الْحَدِيث يُبَيِّن أَنَّ الْمُرَاد بِقَبْضِ الْعِلْم فِي الْأَحَادِيث السَّابِقَة الْمُطْلَقَة لَيْسَ هُوَ مَحْوه مِنْ

صُدُور حُفَّاظه، وَلَكِنْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَمُوت حَمَلَته، وَيَتَّخِذ النَّاس جُهَّالًا يَحْكُمُونَ بِجَهَالَاتِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ."

وهذا الحديث وغيره جاء في سياق بيان أشراط الساعة، ولو ترك الرسول العبارة كما هي " قبض العلم " لكان قد خاض الناظرون فيها والمنكرون يتوقفون عندها، ولكن النبي أوضح هذا، فالعلم مسبّب ونتيجة لاجتهادات العلماء، فقبض العلم ذكرنا فيها المسبّب وأردنا سببه وهم العلماء، فالمجاز هنا مرسل في عرفنا معشر البلاغيين، والذي تولّى شرحه هو سيّدنا رسول الله ﷺ.

وهذا الحديث نموذج فذ لما كان يفهمه الصحابة والرسول صلى الله عليه وسلّم، ولهذا سكتوا عن أمور بدت موهمة وغامضة لمن دخلوا في الإسلام من الأمم الأخرى وليس غريبا أن يكون غياب التأويل المجازي سببا في حصول كوارث تمس العقيدة الصحيحة، وقد أوضح الشهرستاني رحمه الله ذلك في حديثه عن النصارى، عندما وجدوا في الإنجيل لفظ البنوّة، فأخذوه على ظاهره فحدثت بدعة ادعاء أنّ المسيح – والعياذ بالله – ابن الله تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا، ولو أخذوا العبارة وأعطوها حقها من الحقيقة الإلهية وعرجوا إلى دلالاتها بمعراج المجاز لكانوا قد سلموا من هذه القاصمة التي

ضربت ظهر تلك الأمّة ومزّقت عقيدتها وأفسدت تصوّراتها في الإلهيات، وهذا ما يقوله الشهرستاني، يقول: "وأطلقوا لفظ الأبوة والبنوة على الله عزّوجل وعلى المسيح لما وجدوا في الإنجيل حيث قال: إنّك أنت الابن الوحيد، وحيث قال له شمعون الصفا: إنّك ابن الله حقا، ولعلّ ذلك من مجاز اللغة كما يقال لطلاب الدنيا أبناء الدنيا ولطلاب الآخرة أبناء الآخرة "[1] .

ومن الضروري أن يفتح الإنسان المجال للفهم في آيات الله تعالى، بمنهج علمي صحيح يجري على سنّة النبوّة، وعلى سنن العربيّة الفصيحة، وهو المدعو إلى التدبّر وأساس التدبّر الفهم والتفهّم، وليس من الدّين أن نفرض على الآخرين تصوّراتنا وعقائدنا، وندّعي في سبيل ذلك أنّنا ندعو إلى سبل الرشاد[2]، فإنّ هذه سيرة فرعون في قوله حين قال لهم : (مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ) ، فلا تغرنا دعوى الرشاد والهداية والعناوين العريضة بقدر ما تهمّنا

---

[1] الشهرستاني، الملل والنّحل، دار الفكر، ص : 180

[2] نضرب المثال بما فعله المعتزلة مع الإمام أحمد رحمه الله، فقد أرهبوا كل أتباعه، وأخذوه بالقسوة والشدّة والتعذيب مع أنّه كان مسالما يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يجيب ولا يبادر إلا إذا سئل .. ويبدو أنّ دعاة حريّة التفكير هنا هم من يمارسون الإرهاب الفكري والعقدي !! واليوم ليس ببعيد عن البارحة، فالديمقراطيات تمارس العنف ضد الإسلام، ولا تهمة للإسلام سوى أنّه شريعة حياة متكاملة أمام ديمقراطيات عرجاء جاء بها فكر إنساني قاصر، وهكذا أصبح الحكم بيد كل من يتستّر وراء الغوغاء الشعبيّة.

المقاصد والمآلات، وحمل الناس عنوة وتخويفا وشدّة على عقيدة بعينها هو العنف وهو الحرمان من إنسانية الإنسان، من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وللإيمان تصورات ومسالك ليس بالضرورة أن تكون جميعها نمطا واحدا ولكنّها تلتقي في أصول لا بد منها، ومن خرج عن هذه الأصول، فقد خرج من توجيه الخطاب إليه، فهو غير معني بالخطاب، ناهيك عن اللوم والنّقد.

إشارة 03 : ما هو المنهج العلمي الصحيح في قضيّة مجازات القرآن الكريم؟ وهل المجاز عام في القرآن الكريم؟ ما هي حدوده في كتاب الله تعالى؟ .

قال يحيى بن يحيى : كنّا عند مالك بن أنس فجاءه رجل، فقال : يا أبا عبد الرحمن " الرحمن على العرش استوى " فكيف استوى ؟ قال : فأطرق مالك رأسه حتى علاه الرحضاء (العرق) ثم قال : الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعا، فأمر به أن يخرج"(البيهقي في كتابه الأسماء والصفات) .

إنّ مالك بن أنس – رحمه الله – ترك لنا في هذه المقولة الفذّة نظريّة كبرى للتعامل مع القرآن الكريم بخصوص آيات تتعلّق بذات الله

تعالىٰ وصفاته وكذلك في السنّة الشريفة، وإنّها نقلة معرفيّة كبرىٰ لو أتيح لنا دراستها في فصول ومجلّدات، فمالك لم يكن فقيها ومحدّثا فقط، بل كان كذلك عارفا بلغة العرب وسنن أقوالها ..

والمنهج العلمي الذي يتجلّىٰ في مقالته وهو أنّ العقول لا تحيط بذات الله ولا بصفاته، فإنّ ادّعاء معرفة كيفيّة صفاته كذلك ممتنع لا محالة، وهذا المسلك تبعه جمع من العلماء وهو يتضمن تأويلا إجماليا، فلا نستطيع ادّعاء أنّ السلف الصالح جهلوا المقصود بهذه الآيات، بل كان لهم فيها معاني ودلالات لا تتعارض مع التنزيه والإثبات، وهناك جمع آخر من أهل العلم والصلاح ولا نستبعدهم من السلف الصالح أخذوا بالتأويل التفصيلي الذي لا يتعارض مع التنزيه فتلك اجتهادات منهم ، ولا يستطيع أحد أن يلزم المسلمين بواحد من القولين، فهي اجتهادات في التفاسير واستنباط المعاني والتدبّر في كتاب الله تعالىٰ، ولا ننكر جهدهم ولا نشكّك في نيّتهم وقصدهم إلىٰ خدمة الإسلام وتمكين دعائم الإيمان، أمّا بقيّة الآيات التي تعكس المشاعر الإنسانية أو ظواهر الواقع، فإنّ الحكم عليها بالمجاز نجده عند كثير من علماء البلاغة بل ويتّخذونها عمدة لتبيين إعجاز القرآن الكريم

وهذه نحكم عليها بوقوع المجاز فيها قطعا، وذلك لأنّه من أبرز مظاهر الإعجاز في كلام الله تعالىٰ.

إنّ تفسير العقائد وتفسير كلام الله تعالىٰ من فعل البشر تؤخذ عباراتهم واجتهاداتهم وتردّ ولا تقدّس، فتلك آيات علت وسمت حتّىٰ جلّت لغتها عن الوصف والدراسة، وارتقت مرتبة من البيان الإلهي عزيزة المطلب، ويقينا منّي أنّ دراسة تلك الآيات قد أبانها الأئمّة علىٰ مدار العصور السابقة، فمن أراد مراجعة ذلك فعليه بكتب العقائد عند أهل السنة من السّادة الأشاعرة أو غيرهم ممّن انتهج طريق السّلف أو أخذ باجتهاد الخلف، والله تعالىٰ قال في كتابه العزيز :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (آل عمران :7)

ففي قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ **(طه، 5)** اختلاف بين أهل العلم في قضية الاستواء، وحاولوا استجلاء هذا المعنىٰ إمّا بالتأويل الإجمالي الذي يقصد منه تنزيه الله تعالىٰ عن ظاهر

هذه الآيات المستحيل في حقه تعالى[1] وإمّا برؤية بلاغيّة، مع الاحتراز عقديّا ما أمكنهم، ذلك اجتهادهم رحمهم الله، ونريد التأكيد أنّه لا ينبغي لأحد تضليل مجتهد من مجتهدي المسلمين، فالطّرق في النظر إلى العقيدة تعدّدت، والمقبول منها ما وافق قدر الإمكان كتاب الله وسنّة رسوله نصا وفهما، وهنا نعرض آراء الأئمّة في هذه المسألة نقلا عنهم :

قال ابن جرير الطبري في قوله تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29) :

وأَوْلى المعاني بقول الله جل ثناؤه:"ثم استوى إلى السماء فسوَّاهن"، علا عليهن وارتفع، فدبرهنّ بقدرته، وخلقهنّ سبع سموات. والعجبُ ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله:"ثم استوى إلى السماء"، الذي هو بمعنى العلو والارتفاع. فقُل:

---

[1] يقول ابن باديس رحمه الله في " العقائد الإسلاميّة " ما نصّه : " ونثبت الاستواء والنزول ونحوهما ونؤمن بحقيقتهما على ما يليق به تعالى بلا كيف، وبأنّ ظاهرها المتعارف في حقّنا غير مراد "، وتلاحظ أنّه يتزّه الله تعالى عن ظاهرها غير المراد .

ويذكر الإمام البوطي رحمه الله في كبرى اليقينيات الكونيّة أنّ مذهب السلف هو تنزيه الله عن ظواهر هذه الآيات مع تفويض معانيها لله تعالى، وهذا ذكره كذلك الإمام السنوسي وتحدّث عن مذهب الخلف الذي أصبح طريقا لا بدّ منه لأسباب فكرية وحضاريّة .

علا عليها علوّ مُلْك وسُلْطان، لا علوّ انتقال وزَوال." (جامع البيان في تأويل القرآن تح أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة الطبعة : الأولى، 2000 م).

وقال القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) في تفسير الآية 54 من سورة الأعراف في قوله تعالى " ثم استوى على العرش " : فعلو الله وارتفاعه عبارة عن علو مجده وصفاته وملكوته أي ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد ولا معه من يكون العلو مشتركا بينه وبينه لكنّه العلي بالاطلاق سبحانه ."

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)} المجادلة

" ثم قال تعالى مخبرًا عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم، وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ}

أي: من سر ثلاثة { إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } أي: يطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضًا مع ذلك تكتب ما

يتناجون به، مع علم الله وسمعه لهم، كما قال: { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلامُ الْغُيُوبِ } [التوبة : 78] وقال { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: 80] ؛ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى ولا شك في إرادة ذلك ولكن سمعه أيضا مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو، سبحانه، مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء."(تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير.)

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير، وقد أبدع في فهمه على سبيل الاستعارة وأفنان المجاز حسب اجتهاده رحمه الله :

" فالاستواء يعبِّر عن شأن عظيم من شؤون عظمة الخالق تعالى، اختير التّعبير به على طريق الاستعارة والتّمثيلِ: لأنّ معناه أقرب معاني المواد العربيّة إلى المعنى المعبّر عنه من شؤونه تعالى، فإنّ الله لمّا أراد تعليم معان من عالم الغيب لم يكن يتأتى ذلك في اللّغة إلاّ بأمثلة معلومة من عالم الشّهادة، فلم يكن بد من التّعبير عن المعاني المغيّبة بعبارات تقرّبها ممّا يعبر به عن عالم الشّهادة، ولذلك يكثر في القرآن ذكر الاستعارات التّمثيليّة والتّخييليّة في مثل هذا .

وقد كان السّلف يتلقّون أمثالها بلا بحثٍ ولا سؤال لأنّهم علموا المقصود الإجمالي منها فاقتنعوا بالمعنىٰ مجملاً، ويسمّون أمثالَها بالمتشابهات، ثمّ لمّا ظهر عصر ابتداء البحث كانوا إذا سئلوا عن هذه الآية يقولون : استوىٰ الله علىٰ العرش ولا نعرف لذلك كيفاً، وقد بيّنتُ أنّ مثل هذا من القسم الثّاني من المتشابه وأحسب أنّ استعارته تختلف بقرينة الحَرف الذي يُعدّىٰ به فعله، فإن عُدّي بحرف (علىٰ) كما في هذه الآية ونظائرها فهو مستعار من معنىٰ الاعتلاء، مستعمل في اعتلاء مجازي يدلّ علىٰ معنىٰ التّمكّن، فيحتمل أنّه أريد منه التّمثيل، وهو تمثيل شأنِ تصرّفه تعالىٰ بتدبير العوالم، ولذلك نجده بهذا التّركيب في الآيات السّبع واقعاً عقب ذكر خلق السّماوات والأرض، فالمعنىٰ حينئذ : خلقَها ثمّ هو يدبّر أمورها تدبير المَلِك أمور مملكته مستوياً علىٰ عَرشه . وممّا يقرب هذا المعنىٰ قول النّبيء صلىٰ الله عليه وسلم " يَقْبِض الله الأرضَ ويطوي السّماوات يومَ القيامة ثمّ يقول : أنا المَلِك أَيْنَ ملوك الأرض". ولذلكَ أيضاً عُقب هذا التّركيب في مواقعه كلّها بما فيه معنىٰ التّصرف كقوله هنا { يغشىٰ الليل النهار الخ، وقوله في سورة يونس (3) : {يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه} وقوله في سورة الرّعد (2): {وسخر الشمس والقمر كل يجري

لأجل مسمىٰ يدبر الأمر يفصل الآيات } وقوله في سورة ألم السجدة (4، 5) : { مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الأمر من السماء إلىٰ الأرض } وكمال هذا التّمثيل يقتضي أن يكون كلّ جزءٍ من أجزاء الهيئة الممثّلة مشبهاً بجزء من أجزاء الهيئة الممثَّل بها، فيقتضي أن يكون ثمة موجود من أجزاء الهيئة الممثّلة مشابهاً لعرش المَلك في العظمة، وكونه مصدر التّدبير والتّصرف الإلهي يفيض علىٰ العوالم قوىٰ تدبيرها . وقد دلّت الآثار الصّحيحة من أقوال الرّسول عليه الصّلاة والسّلام علىٰ وجود هذا المخلوق العظيم المسمّىٰ بالعرش كما سنبيّنه .

فأمّا إذا عُدّي فعل الاستواء بحرف اللاّم فهو مستعار من معنىٰ القصد والتّوجّه إلىٰ معنىٰ تعلّق الإرادة، كما في قوله :{ ثم استوىٰ إلىٰ السماء } [البقرة : 29] . وقد نحا صاحب «الكشاف» نحواً من هذا المعنىٰ، إلاّ أنّه سلك به طريقة الكناية عن المُلك : يقولون استوىٰ فلان علىٰ العرش يريدون مُلك ." (تفسير التحرير والتنوير، ج5 ص: 157)

إنّ الحرص علىٰ سلامة العقيدة هو ما دفع هؤلاء العلماء إلىٰ التماس مسالك الدلالات في العبارات وتفهّمها، لأنّ الوقوف عند ظواهر الآيات دون تمكين معانيها من النفوس، يوقع فيما لا يحمد عقباه

حسب رؤيتهم، وهذا الطريق سار فيه جمع العلماء من فقهاء ومفسرين وأصوليين وبلاغيين وغيرهم ممّن يمثّلون المدارس الكبرىٰ في العالم الإسلامي هذا الطّريق لا نلزم به من فارقه، ولا ننعت مفارقه بالضلال، بل نحترم اختياره ورؤيته الخاصة لكتاب الله علىٰ شرط ألا يلزم بها غيره ولا يعتبرها هي الحقيقة المطلقة وهو القابض عليها، كذلك نحن لسنا ندّعي أنّ اليقين المطلق بين أيدينا ن بل نملك وجها من أوجه الحقيقة، وقد يملك غيرنا وجوها أخرىٰ.

وفي هذا الصّدد نذكر عقيدة أهل السنّة الحقّة التي عاش عليها أجدادنا وسلفنا الصالح، أجدادنا الذين شادوا بنيان الحضارة الإسلامية مشرقا وغربا ولم يكونوا يوما تابعين للكفّار مهادنين لهم، وإنّ عقيدة الإمام السنوسي التلمساني رحمه الله تعالىٰ التي درّست في القرويين والأزهر – ولا تزال كذلك – جمعت عقيدة أهل السنّة علىٰ بيان الحق، وقد شرح السنوسي المنظومة الجزائريّة في العقائد، ويقول صاحب المنظومة الشيخ أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري :

وكلّ ما أوهم القرآنُ من شبه أو حديث فأوّل كلّ محتمل

أو خذ بمعناه واترك لفظ ظاهره منزّها مثل رأي السّادة الأُوَل

ويبيّن السنوسي في شرحه[1] أن التوقّف عند الظاهر في آيات الصفات أصل من أصول الكفر والعياذ بالله، ويبسط اختلاف أهل السنّة في بيان هذه الصفات إلى ثلاث فرق :

*فرقة ترى التأويل وحمل اللفظ على أقرب مجاز يصحّ وهذا مذهب إمام الحرمين الجويني وجماعة معه.

*فرقة ترى عدم التعرّض للتأويل والاكتفاء بمجرّد التنزيه على الظاهر المستحيل وهذا مذهب جمهور السّلف.[2]

*إثبات صفات على وجه لائق لله تعالى وتفويض معناها لله تعالى مع تنزيهه عن ظاهرها المستحيل في حقّه تعالى .

هكذا عرض السنوسي رحمه الله مذهب أهل الحق، وسبق له وأن ذكر هذه المسالك في المقدّمات وشرحه العقيدة الوسطى والكبرى فإنّ الإمام السنوسي أعاد بحق تنظيم المشهد العقدي في بلاد المغرب وكذا

---

[1] السنوسي، المنهج السّديد في شرح كفاية المريد، تحقيق مصطفى مرزوقي، دار الهدى، الجزائر، ط1، ص : 206.

[2] وليكن في علم كلّ مطالع لهذه العبارات أنّ هذه عقيدة أهل السلف الحقيقيّة التي تنزّه الله عن ظاهر هذه الآيات المستحيل في حقّة تعالى، وليس ذلك المذهب الذي يأخذها على ظاهرها والعياذ بالله، الوقوف عند ظاهر هذه الآيات واعتقادها على ظاهرها يؤدّي إلى ما لايحمد عقباه، والإمام البوطي نبّه على أنّ تنزيه الله عن ظاهرها هو مذهب الحق الذي لا ينبغي أن نحيد عنه ولا ينبغي أن يلتبس علينا بدعاوى مشبوهة تابعة لشرق أو لغرب .

انتقل عبر الأزهر إلى البلاد المشرقيّة فعقيدتنا في صفات الله على مذهب أهل السلف الذي ينزّهون الله عن ظاهر هذه الآيات المستحيل في حقّه تعالى ، ولا نحكم على من اتّجه إلى التأويل بالضلال فطريقهم وطريق أهل السلف تؤدّيان إلى حقيقة واحدة ومبتغى واحد، بل إنّ طريق التأويل كان طريقا للخلف وكان لا بدّ منه[1] في ظروف مغايرة لظروف السلف وجدوا الأمّة عليها فكان لزاما الأخذ بالتأويل المحمود الذي لا يعارض تنزيه الله تعالى ، والسير على طريق السلف لا يمنع من فهم دلالات استنتجها أهل التأويل الحق المعتمد على سنن العربيّة في وجوه مخاطباتها، وهو ما فهمته العرب من بيان القرآن الكريم.

تنبيه : جمع العلماء القائلين بالمجاز في الردّ على معطّلة البلاغة :

وإنّ جمع الأئمّة القائلين بالمجاز في القرآن ليحتشدون حتّى يخيّل للقارئ أنّه جيش ينافح عن هذه الخاصيّة العظيمة من خواص الأسلوب القرآني الكريم، وإنّ أقوالهم لهي صواعق مرسلة على كلّ معطّل للمجاز في القرآن الكريم، فإذا كانت المعطّلة عند علماء الكلام

---

[1] ينظر كبرى اليقينيات الكونيّة للشهيد الإمام البوطي في الفصل الخاص بصفات الله تعالى وما يترتب عنها من الاعتقادات والتنزيه .

تعطّل الصفات فإنّ معطّلة البلاغة لا تقلّ عنهم، أولئك المعطّلة التي عطّلوا القرآن من شطر حسنه، وعطّلوه من أحد أسباب حسن فهمه وإحسان إفهامه للخلق.

**** تنبيه: الإمام أحمد والإمام ابن تيمية – رحمهما الله – يقولان بالتأويل:**

التأويل ليس جريمة وليس ضلالا إذا كان محترما لأصول اللغة، والتأويل مثلما عرّفه ابن رشد رحمه الله : "ومعنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقيّة إلى الدلالة المجازيّة من غير أن يخلّ في ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز"[1]

فالتأويل سبيل للكشف عن دلالات لا يمكن الحصول عليها لاستحالة ذلك من طريق الحقيقة، فالمجاز يفعّل خواص العبارة اللغويّة ويستخلص منها دلالات ومعاني تعجز الحقيقة عن آدائها .

وقال الإمام فخر الدين الرازي في أساس التقديس في علم الكلام، في القسم الثاني الخاص بتأويل المتشابهات من الأخبار والآيات : "نقل الشيخ الغزالي رحمه الله عن أحمد بن حنبل رحمه الله أنّه أقرّ بالتأويل في ثلاثة أحاديث :

[1] ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال،دار الكتب العلميّة، ص :99.

أحدها قوله عليه السلام : " الحجر يمين الله في الأرض "

وثانيها قوله عليه السلام :"إنّي لأجد نفس الرحمن من قبل اليمين"

وثالثها قوله عليه السلام حكاية عن الله :" أنا جليس من ذكرني"[1]

وانظر في نقل الإمام ابن تيمية عن الإمام أحمد في قوله صلى الله عليه وسلّم في الصحيح: { **اقْرَءُوا الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا يَجِيئَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ غَمَامَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ يُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا** }، فقد نقل عنه أنّه قال يأتي ثوابهما.[2] ونجد ابن تيمية يروي كثيرا من الأقوال عن أحمد ولا يضبط أيّ قول لتوزّع التأويلات بين أصحاب أحمد وكثرة الاحتجاج .

وابن تيمية يمارس التّأويل ويقرّ بأّنّ هذا التأويل وقع في الحديث ولكنّه لا يقرّ بذلك، انظر في كلامه عن حديث : { **يَقُولُ اللهُّ عَبْدِي جُعْت فَلَمْ تُطْعِمْنِي فَيَقُولُ : رَبِّ كَيْفَ أُطْعِمُك وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْت أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا جَاعَ فَلَوْ أَطْعَمْته لَوَجَدْت ذَلِكَ**

---

[1] أساس التقديس، مؤسسة الكتب الثقافيّة، بيروت – لبنان، ط1، 1995م، ص : 68.

[2] انظر الفتاوى الكبرى، فصل في نزاع الناس في حديث النزول . إذ ينقل : " وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَخْبَرَ بِمَجِيءِ الْقُرْآنِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ أَرَادَ بِهِ الْإِخْبَارَ عَنْ قِرَاءَةِ الْقَارِئِ ؛ الَّتِي هِيَ عَمَلُهُ وَذَلِكَ هُوَ ثَوَابُ قَارِئِ الْقُرْآنِ ؛ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّ نَفْسَ كَلَامِهِ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وَهُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ يَتَصَوَّرُ صُورَةَ غَمَامَتَيْنِ .

عِنْدِي عَبْدِي مَرِضْت فَلَمْ تَعُدْنِي فَيَقُولُ : رَبِّ كَيْفَ أَعُودُك وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ : أَمَا عَلِمْت أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَوْ عُدْته لَوَجَدْتنِي عِنْدَهُ } يقول ابن تيمية : وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَمْرَضْ وَلَمْ يَجُعْ وَلَكِنْ مَرِضَ عَبْدُهُ وَجَاعَ عَبْدُهُ فَجَعَلَ جُوعَهُ جُوعَهُ وَمَرَضَهُ مَرَضَهُ مُفَسِّرًا ذَلِكَ بِأَنَّك لَوْ أَطْعَمْته لَوَجَدْت ذَلِكَ عِنْدِي وَلَوْ عُدْته لَوَجَدْتنِي عِنْدَهُ ؛ فَلَمْ يَبْقَ فِي الْحَدِيثِ لَفْظٌ يَحْتَاجُ إلَى تَأْوِيلٍ"

ابن تيمية محاصر بهذا الحديث الذي تولّى الوحي نفسه تأويله وإخراجه عن طريق المجاز، وإلا فبماذا تفسّر ما قام به ابن تيمية ؟؟ إنّه يقول: " لَوْ أَطْعَمْته لَوَجَدْت ذَلِكَ عِنْدِي وَلَوْ عُدْته لَوَجَدْتنِي عِنْدَهُ" أليس هذا تأويلا ؟؟ ألا ينطبق على قوله :" أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَمْرَضْ" قاعدة النفي[1] التي حارب بها السادةَ العلماءَ القائلين بالمجاز ؟؟

لا نشكّ في أنّ الإمام ابن تيمية اجتهد وأنّ قصده هو خدمة العقيدة والحق، ولكن ليس علينا في رؤية ما نراه حقّا أن نكفّر غيرنا ونفسّقهم وننعتهم بالضّلال، فهذا ظلم شنيع .

---

[1] لقد حارب المنكرون للمجاز إخوانهم من مثبتيه بحجّة قاعدة النّفي، فمثلا عندما أقول : "زأر محمّد " وأقول هذا مجاز، يقولون لنا: لماذا فنقول : لأنّه لم يزأر، فنقوم بالنّفي، وكذلك فيما وقع في القرآن، فقد تحدّوهم بالنّفي أي أنّهم ينفون أمورا أثبتها القرآن، وهذه قاعدة سخيفة، لأنّ النّفي يتوجّه إلى الدلالة الظاهرة التي ليست بالضرورة حقيقيّة، ويثبت الحقيقة من خلالها، فالنّفي إن وقع فهو لإثبات الحقائق التي تختفي وراء الظواهر غير المقصودة .

ونجد قول ابن تيمية في قوله تعالى : { **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** } أَيْ قِبْلَةُ اللَّهِ وَوُجْهَةُ اللَّهِ هَكَذَا قَالَ جُمْهُورُ السَّلَفِ وَإِنْ عَدَّهَا بَعْضُهُمْ فِي الصِّفَاتِ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ بِوَجْهٍ فِيهِ نَظَرٌ" وكذلك ختم مقالته هذه ببيان معنى قوله تعالى : **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ كَمَا قَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ** : { **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** } { **وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** } فَإِنَّ بَقَاءَ وَجْهِهِ الْمُذَوَّى بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ : هُوَ بَقَاءُ ذَاتِهِ ." (مجموع الفتاوى، فصل السبب في كفر الاتّحاديّة)

نجد ابن تيمية يقول بالمجاز في قوله تعالى : " وقالت اليهود يد الله مغلولة " فقال عنها: " وهي حقيقة عرفيّة ظاهرة من اللفظ أو هي مجاز مشهور "(اقتضاء الصراط المستقيم)

وقد بدأت الدراسات الواعية تتّجه إلى كلام ابن تيمية بالنّقد والتمحيص وبيان غرائبه وعجائبه[1]، ومن بينها دراسة فذّة للباحث رائد السّمهوري[2] في كتابه: نقد الخطاب السّلفي ابن تيمية نموذجا، هذه الدراسة التي كشف فيها عن مغالطات ابن تيمية وتناقضاته

[1] **ينظر رسالة زغل العلم ففيها كلام عن شخصية ابن تيمية توضّح ما خفي عن طالب العلم والحق .**

[2] **رائد السّمهوري، نقد الخطاب السّلفي (ابن تيمية نموذجا)، دار طوى للنشر والتوزيع، ط1، 2010م .**

وكشف أساليب خفيّة في استخدام الرّجل لأدلّة منع خصومه من استخدامها ثم يعود إليها ليوظّفها لنصرة رأيه.

وإنّ شخصيّة ابن تيمية لا يضيرها ما يقال عنها، بل إنّها تكبر بالنّقد والدراسات التي تحوم حولها، ولكن لا ينبغي تقديس الرّجل، وهو الذي حارب الشّرك طيلة حياته، نصل اليوم إلى أقوام لا يسعهم إلا إعلاء كلمته وكأنّها كلمة النبوّة، ابن تيمية رجل علم اجتهد فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر، كغيره من أئمّة المسلمين، ومن الغلو في الرجال كان مدخل الفتن على الصوفيّة، وكذلك كل فرقة تدّعي الحق، فلا نغالي في إعلاء كلمة ابن تيمية ونضع كلامه موضع النّقد والتمحيص العادل، فقد تعرّض للتجنّي من خصومه في عصره، ومازال يتعرّض لحملة شعواء، وذلك لأنّ من يتعصّبون له يثيرون مشاعر البغضاء لأفكاره من طرف أعدائه، وأنا ممّن يقتصدون في هذا المسلك، فابن تيمية متعة لمن قرأه وفهم نهجه وفهم عصره وشخصيّته، وفهم كذلك الأسباب التي جعلته ينكر ما أنكره، وكذلك يجب أن نضع في الحسبان ما دُسّ على ابن تيمية في كتاباته، فأمر يقضي العجب أن نجده يتوسّط في المجاز حينا وحينا آخر يشتطّ فينكر ويكفّر غيره ويضلّلهم.

إشكالية التكفير عند ابن تيمية :[1]

بينما نجد ابن تيميّة رحمه الله يقول عن المنافرة والوحشة التي حصلت بين الحنابلة وبين الأشاعرة : " وَأَنَا كُنْت مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ تَأْلِيفًا لِقُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ وَطَلَبًا لِاتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ وَاتِّبَاعًا لِمَا أُمِرْنَا بِهِ مِنْ الِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ وَأَزَلْت عَامَّةَ مَا كَانَ فِي النُّفُوسِ مِنْ الْوَحْشَةِ وَبَيَّنْت لَهُمْ أَنَّ الْأَشْعَرِيَّ كَانَ مِنْ أَجَلِّ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَنَحْوِهِ الْمُنْتَصِرِينَ لِطَرِيقِهِ كَمَا يَذْكُرُ الْأَشْعَرِيُّ ذَلِكَ فِي كُتُبِهِ. "(**الفتاوى الكبرى**)

بل ونجد غاية الأدب والمعرفة والإنصاف عنده حين يقول : "وَقَدْ قُلْت لَهُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ :أَنَا أُمْهِلُ مَنْ يُخَالِفُنِي ثَلَاثَ سِنِينَ إنْ جَاءَ بِحَرْفِ وَاحِدٍ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ يُخَالِفُ مَا قُلْته فَأَنَا أُقِرُّ بِذَلِكَ ."

وانظر إلى ابن تيمية الفقيه العارف بأصول النّظر والجدل الذي تعلّم عن السّلف أن التكفير ليس منهجهم وليس السباب والشّتم وضرب الإيمان أسلوبهم حين يقول : "هَذَا مَعَ أَنِّي دَائِمًا وَمَنْ جَالَسَنِي يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنِّي : أَنِّي مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ نَهْيًا عَنْ أَنْ يُنْسَبَ مُعَيَّنٌ إلَى

---

[1] آثرت الخوض في هذا الأمر لأنّه نتيجة مباشرة لإغلاق النص على دلالات بعينها وإقفال الأبواب أمام الدلالات وقد جاء في الأثر أنّ العالم لا يفسّر القرآن حتى يرى له أوجها .. فأين هذا ممّا يمارسه منكرو المجاز على عبارات القرآن الكريم ويأخذونها على ظاهرها.

تَكْفِيرٍ وَتَفْسِيقٍ وَمَعْصِيَةٍ، إلَّا إذَا عُلِمَ أَنَّهُ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الرسالية الَّتِي مَنْ خَالَفَهَا كَانَ كَافِرًا تَارَةً وَفَاسِقًا أُخْرَىٰ وَعَاصِيًا أُخْرَىٰ وَإِنِّي أُقَرِّرُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ خَطَأَهَا : وَذَلِكَ يَعُمُّ الْخَطَأَ فِي الْمَسَائِلِ الْخَبَرِيَّةِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْمَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ . وَمَا زَالَ السَّلَفُ يَتَنَازَعُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ وَلَمْ يَشْهَدْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَحَدٍ لَا بِكُفْرِ وَلَا بِفِسْقٍ وَلَا مَعْصِيَةٍ كَمَا أَنْكَرَ شريح قِرَاءَةَ مَنْ قَرَأَ { بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ } وَقَالَ: إنَّ اللَّهَ لَا يَعْجَبُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ إبْرَاهِيمَ النخعي فَقَالَ إنَّمَا شريح شَاعِرٌ يُعْجِبُهُ عِلْمُهُ . كَانَ عَبْدُ اللَّهِ أَعْلَمَ مِنْهُ وَكَانَ يَقْرَأُ { بَلْ عَجِبْتَ } . وَكَمَا نَازَعَتْ عَائِشَةُ وَغَيْرُهَا مِنْ الصَّحَابَةِ فِي رُؤْيَةِ مُحَمَّدٍ رَبَّهُ وَقَالَتْ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَىٰ رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَىٰ اللَّهِ الْفِرْيَةَ وَمَعَ هَذَا لَا نَقُولُ لِابْنِ عَبَّاسٍ وَنَحْوِهِ مِنْ الْمُنَازِعِينَ لَهَا : إنَّهُ مُفْتَرٍ عَلَىٰ اللَّهِ ."(الفتاوىٰ الكبرىٰ، مسألة جواب عن ورقة أرسلت لشيخ الإسلام في السجن، ج1) ومن قوله هذا نفهم أنّ تكفير فلان بعينه ليس منهج أهل السلف، وأنّ السّلف كانوا مختلفين في أمور في العقيدة (رؤية الله، سماع الأموات ...إلخ) بشهادة ابن تيمية ونصوص السّلف ذاتهم، ولكن لم يفسّق بعضهم بعضا ولم يخرج بعضهم بعضا من أهل السنّة، مثلما نشهده اليوم للأسف الشّديد .

بل نجد قمّة الورع ممزوجا بحسن الفهم عند ابن تيمية عندما يبيّن أن المتأوّل المجتهد لتحرّي طريق رسول الله صلى الله عليه وسلّم أولى بالمغفرة إذ يقول: "وَكُنْت دَائِمًا أَذْكُرُ الْحَدِيثَ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي قَالَ : " { إذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذروني فِي الْيَمِّ فَوَاَللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ، فَفَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ فَقَالَ اللَّهُ لَهُ : مَا حَمَلَك عَلَى مَا فَعَلْت . قَالَ خَشْيَتُك : فَغَفَرَ لَهُ } " . فَهَذَا رَجُلٌ شَكَّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَفِي إعَادَتِهِ إذَا ذُرِّيَ، بَلْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ لَا يُعَادُ، وَهَذَا كُفْرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنْ كَانَ جَاهِلًا لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ وَكَانَ مُؤْمِنًا يَخَافُ اللَّهَ أَنْ يُعَاقِبَهُ فَغفَرَ لَهُ بِذَلِكَ . وَالْمُتَأَوِّلُ مِنْ أَهْلِ الِاجْتِهَادِ الْحَرِيصُ عَلَى مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ أَوْلَى بِالْمَغْفِرَةِ مِنْ مِثْلِ هَذَا ."

وأتساءل: وهل القائلون بالمجاز، والمعتزلة وغيرهم أليسوا متأوّلين يرومون طريق الحق؟ ألم يكونوا مجتهدين ؟ ألم يكن فيهم القضاة ؟ فلماذا المسارعة إلى تكفيرهم؟ وتفسيقهم وتبديعهم و...و... إلخ .

وابن تيمية يفرّق بين تكفير المعيّن – شخص بعينه – وبين تكفير المطلق – القول أو الطائفة –، فلا نجد عنده تكفيرا للمعيّن صريحا، ولكنّه يصف الشيخ العالم الفذّ المفسّر الأصولي البلاغي الأستاذ فخر الدين الرّازي بأنّه محادّ لله ولرسوله وذلك حين يقول ابن تيمية :

"ومن العجب أنّ هذا الرجل المحادّ لله ولرسوله عمد إلى الأخبار المستفيضة عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقدح فيها قدحا يشبه الزنادقة والمنافقين " (بيان تلبيس الجهمية ج1، ص 459)

عجيب أمر ابن تيمية بين ما يقرّره في قواعد فكره النظريّة وبين ما يمارسه من عنف فكري على كل ذي اجتهاد في الإسلام، ممّا يدفع رائد السمهوري إلى القول : "فهذا الوصف المحاد لله ولرسوله لم يطلق في القرآن الكريم إلا على المنافقين والكافرين فهل الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله كان محادّا لله ولرسوله حقّا ؟وهل يجوز وصف عالم متأوّل من علماء المسلمين بهذه الأوصاف لا سيما إن كان بمنزلة الإمام الرازي رحمه الله ؟"[1]

وفي موقف آخر ينقض ابن تيمية منهجه مع المتأوّلين المخالفين دون تمحيص منه هل قامت عليه الحجّة أم لا، ودون احترام للاجتهاد وفق أصول منضبطة على وفق كلام العرب وسننهم في مخاطباتهم وفهمهم لمسالك العبارة عندهم، نجد ابن تيمية يعلن أنّ من يخالفه كافر ويستوجب القتل – قمّة العنف الفكري – فيقول في فتوى سئل

[1] رائد السمهوري، نقد الخطاب السّلفي، ص65

فيها عن رجل يقول بأنّ الله خلق الكلام في الشجرة عندما نودي موسىٰ عليه السّلام : "وَسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي رَجُلٍ قَالَ : إنَّ اللهَ لَمْ يُكَلِّمْ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا وَإِنَّمَا خَلَقَ الْكَلَامَ وَالصَّوْتَ فِي الشَّجَرَةِ وَمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَمِعَ مِنْ الشَّجَرَةِ لَا مِنْ اللهَّ وَأَنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُكَلِّمْ جِبْرِيلَ بِالْقُرْآنِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ . فَهَلْ هُوَ عَلَىٰ الصَّوَابِ أَمْ لَا ؟

فَأَجَابَ : الْحَمْدُ للهَّ لَيْسَ هَذَا عَلَىٰ الصَّوَابِ ؛ بَلْ هَذَا ضَالٌّ مُفْتَرٍ كَاذِبٌ بِاتِّفَاقِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا ؛ بَلْ هُوَ كَافِرٌ يَجِبُ أَنْ يُسْتَتَابَ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ وَإِذَا قَالَ : لَا أُكَذِّبُ بِلَفْظِ الْقُرْآنِ - وَهُوَ قَوْلُهُ : { وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا } - بَلْ أَقَرَّ بِأَنَّ هَذَا اللَّفْظَ حَقٌّ لَكِنْ أَنْفِي مَعْنَاهُ وَحَقِيقَتَهُ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ الجهمية الَّذِينَ اتَّفَقَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مِنْ شَرِّ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ حَتَّىٰ أَخْرَجَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ عَنْ الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً ."

هذه الفتوىٰ مبنيّة علىٰ أنّ رأي هذا الرجل ومقالته ليست علىٰ نهج السّلف فهي تستوجب الكفر لقائلها ومعتقدها ومنه يقتل ويحدّ، ولكن هل ورد في القرآن كيفيّة محدّدة لفهم هذه الآية فيتقيّد المؤمن بها؟ هل ورد عن الرسول صلىٰ الله عليه وسلّم نص متواتر أو آحاد

صحيح غير مختلف فيه يبيّن كيفيّة فهمنا لكلام الله لموسىٰ عليه السلام ؟ إذا كان الجواب بالنّفي، فإنّ الفهوم تختلف، فنحن نعتقد أنّ الله كلّم موسىٰ تكليما، وهناك من المؤمنين من يعتقد مثل ما يعتقد هذا الرّجل، فهل هناك نص يوجب قتله ؟ أليس دم المؤمن حرام إلا من ثلاث، فهل هذا واحد من ثلاث، ألم تعصم الدماء بلا إله إلا الله ؟ فلماذا حكم ابن تيمية بكفره وقتله ؟؟

<u>هنا أصل إلى حقيقة لا سبيل إلى الهروب منها :</u>

**إمّا أنّ الإمام ابن تيمية يناقض نفسه وتتعدّد آراؤه فيحكم في مسأله بما لا يحكم في أخرىٰ، وهذا يعني أن نترك الرجل بين خلافيّاته.

**إمّا أنّ هناك من دسّ أقوالا وآراء علىٰ ابن تيمية في إطار صراعات مذهبيّة لتبرير أقوالهم وهذا وارد خاصة مع وجود المخطوط الذي يمكن الزيادة والنقصان فيه .

وإنّ النّاظر في ما يفتي به ابن تيمية رحمه الله يرىٰ عجبا من عدم الحكم مثلا علىٰ الرافضة بالكفر بل بالابتداع ثم الحكم في فتوىٰ أخرىٰ بقتلهم !!!

ليت من يقرؤون ابن تيمية في عصرنا هذا أولئك الذين يحاربون إخوانهم في الإسلام وبدعم من الغرب يفهمون قوله : "وَلْيَعْلَمْ أَنَّ

الْمُؤْمِنَ تَجِبُ مُوَالَاتُهُ وَإِنْ ظَلَمَك وَاعْتَدَىٰ عَلَيْك وَالْكَافِرُ تَجِبُ مُعَادَاتُهُ وَإِنْ أَعْطَاك وَأَحْسَنَ إلَيْك" (الفتاوىٰ) لو فهموها حقّ الفهم وتمسّكوا بما يقوله لكانت الأمّة واحدة ولما طلع علينا قوم يلزمون الناس بابن تيمية ويتحرّرون هم من أقواله، فيفتون بجواز ضرب وتكفير وتفسيق الأخ المؤمن الذي اختلف معك في الاجتهاد، أين موقفهم من موقف معاوية رضي الله عنه عندما أرسل إلىٰ ملك الروم وأعلن أنّه إن حاربه فسيتصالح هو وابن عمّه (علي رضي الله عنه) ويأتيانه مجاهدين ليدكّا ملكه، تغيّر الزمن إنّه عصر الفتن وتنغيص حياة المسلمين وسيرهم قدما.

وإنّ كتابات ابن تيمية (ونعتقد أنّ هناك ما دُسّ علىٰ الرّجل) هي التي نشهد فعلها في أوروبا ممّا يقترفه المغرّر بهم، فابن تيمية يقول عن المسلم يدخل دار الحرب التي لا عهد بيننا وبينهم بالأمان : "وَكَذَلِكَ لَوْ سَرَقَ أَنْفُسَهُمْ أَوْ أَوْلَادَهُمْ أَوْ قَهَرَهُمْ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ ؛ فَإِنَّ نُفُوسَ الْكُفَّارِ الْمُحَارَبِينَ وَأَمْوَالَهُمْ مُبَاحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ فَإِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا بِطَرِيقٍ مَشْرُوعٍ مَلَكُوهَا."(الفتاوىٰ، فصل : مسألة كافر باع نفسه لمسلم)

هذا منطق الرعب الذي نراه يمارس علىٰ غير المسلمين من طرف مسلمين لم يفهموا حقيقة الجهاد، والسبب الذي أدّىٰ إلىٰ وقوعهم في

الخطأ هي هذه الفتاوىٰ التي نجدها عند "شيخ الإسلام"، ثم نجد من يتّهم سيّد قطب بكل ما يجري من عنف يسند إلىٰ الإسلام في العالم، إنّ ما يقوله ابن تيمية في هذا الباب خطر عميق علىٰ الإسلام، وهل كان الصحابة يدخلون إلىٰ بلاد الروم وفارس أو إلىٰ أرض اليهود فيسرقون منهم وينهبون بحجّة أنّهم لا عهد بينهم ؟؟؟ هل كان السّلف يدخلون علىٰ قرىٰ الهند والسّند وأعالي بلاد فارس فينهبون ويسرقون ؟؟؟ هل هذه أخلاق الإسلام ؟؟؟، وبمثل هذه الأقوال والفتاوىٰ استدرج شباب صالح من المسلمين لم يفهم حقيقة الشرع في تعامله مع غير المسلمين، وإنّها لخطّة مدبّرة ليتمّ اتّهام الإسلام وتشويه صورته، وصورة أعلامه من أمثال الشهيد سيّد قطب رحمه الله.

يقول رائد السّمهوري معلّقا علىٰ فتوىٰ الإمام : "وإذن فمن دخل دار حرب بغير عقد أمان فلا عليه أن يسرق أموالهم ويستبيحها وأن يقهرهم بأي طريقة كانت ... غير أنّ المشكلة الحقيقيّة هي في بعض شباب اليوم الذين يأخذون هذا الكلام مأخذ المسلّمات "[1] وقد أبدىٰ الأستاذ رائد تعجّبه من مقولة ابن تيمية وكيف يعتمد عليها في التفجيرات وترويع غير المسلمين .

---

[1] رائد السّمهوري، نقد الخطاب السلفي، ص : 38.

إنّنا نفتقر إلى المنهج الصحيح الذي يبني أحكام الإسلام على بصيرة من العقل والنقل كذلك البناء العلمي الشامخ للإمام الشهيد سعيد رمضان البوطي الذي كان يعلم يقينا أنّ أقواله يوما ما ستجد طريقها إلى الواقع فيحاسب على ثمارها التي تنتج، وقد قدّم الإمام البوطي عملا ضخما وجهدا جهيدا في كتابه "الجهاد"، وكتابه السلفيّة مرحلة زمنيّة مباركة، لتعرف الأمّة أنّ نهج الإسلام ليس الكلام جزافا إنّما تضبطه ضوابط علميّة وواقعيّة. وإذا كان سيّد قطب قد اتّهمت أفكاره في إنتاج العنف فإنّ لابن تيمية بهذه الفتاوى – إذا صحّت أنّها له وأنا أشكّ في نسبتها إليه لأنّها تعارض أقوالا سابقة له -نصيب الأسد من التبعات.

ولا يكتفي ابن تيمية رحمه الله بهذا بل يذهب إلى إقرار أنّ الإكراه واقع في الدين، فيجب إكراه الحربي على الدين وهذا من أعجب الآراء!!!!

إشارة 04 : إثبات دلالات ومعاني تستخلص من المجاز لا يدفع الحقيقة ولا يؤدّي إلى الكفر والضلال.

لقد غدت سوق التكفير والتضليل رائجة في الخطاب العربي الإسلامي المسلّح (عفوا المسطّح !) وقد أصبح كل صاحب مقهى

وحانوت (عفوا عالم) يسأله الطلبة (عفوا الفرقة التي اشترت صكّ النجاة) ما حال العالم فلان ؟ وكيف العالم علّان ؟ فيجيبهم : أمّا هذا فأشعري .. احذروه !!.. وذاك صوفي لا تسمعوه!! أمّا فلان فجهمي معطّل وعقلاني حداثي حذّر منه بنو قريظة فاحذروه!! ..... للأسف هذا هو حال الخطاب الإسلامي في بعض البلاد المسلمة أو ما تموّله بعض الجهات، وليس غريبا أن يقبل من هبّ ودب على وجه الأرض للطّعن في علماء أجلّاء كالغزّالي والجويني والبوطي وابن عربي والبوني وابن تيمية وسيّد قطب وابن سبعين رحمهم الله تعالى أجمعين وجزاهم عنّا خير الجزاء.

ولك في البلاغة مشاهد هزليّة، كعنوان قرأته لمؤلّف – أحترمه ولا أنتقص من شخصه – (البلاغة في ضوء عقيدة أهل السنة ...) وطالعته فما كان منّي إلا أن ندمت على وقتي الضائع فيه وعلى ضيق الأفق وقلّة الزاد وسطحيّة الأخذ، فكأنّ البلاغة العربيّة يجب علينا إقصاؤها ودحرها ودفنها .. لماذا يا قوم ؟ لأنّ أساطينها معتزلة وأشاعرة و..و.. !!! بل والغريب أنّ هناك من يوصي بعدم التعمّق في اللغة وعدم التوسّع فيها خوفا من الضلال ...

أيّ عقيدة هذه التي تخاف من التوسّع في لسان العرب وفنونه وآدابه ؟ والعربيّة أصل العقيدة .. بل إنّ الإيمان عقد بلاغي مبني على إعجاز بلاغي وهكذا آمنت العرب وآمن الصحابة رضوان الله عليهم – سمعوا القرآن فعرفوا بلاغته فآمنوا به – أيّ عقيدة هذه التي تخاف العربيّة والتوسّع فيها ؟؟ إلا إذا كانت تصوّرات هذه العقيدة سطحيّة تعرّيها المعرفة باللغة وأسرارها .

ليس من سبيل إلى الشك في علماء السلف رضوان الله عليهم أو تقبيح نواياهم أو أخذهم مأخذ الريبة، فقد اجتهدوا وقدّموا لنا الكثير ونحن مقصّرون في قراءة ما كتبوه وفهمه حق الفهم، ولكن لا يسعنا ما وسعهم، فلو طالع الواحد من علماء اليوم ما يدخل إلى العقل العربي من دراسات غربية في الاستعارة والبلاغة والمجاز والسرد والنظريات المعرفية لحمد الله على مقولات الرازي وآراء الجويني، وقد بدأت التفاسير تظهر تفاسير من وجهة نظر الرؤية والفلسفة النسائيّة وأخرى ما بعد حداثيّة وأخرى ... وأخرى ... فأين علماؤنا ؟

وهؤلاء سادات العلماء يتكلّمون عن المسألة :

❋. **يقول الإمام محمّد بن صالح العثيمين** رحمه الله متحدثا في فتاويه عن صفة اليد مبيّنا ضلال المنكرين أو المشبّهة ثم يقول :"لكن إن قال

المراد باليد النعمة أو القوّة فلا يكفّر لأنّ اليد في اللغة تطلق بمعنىٰ النعمة، قال الشاعر :

وكم لظلام الليل عندك من يد تحدث أنّ المانويّة تكذب ."

(فتاوىٰ أركان الإسلام، الرسالة ناشرون، ط1، ص 93.)

❋.**يقول الإمام ابن باز** رحمه الله بعد أن سئل هل الأشاعرة من أهل السنّة ؟

" هل الأشاعرة من أهل السنة والجماعة أم لا ؟ وهل نحكم عليهم من المذهب أم كفار ؟

فأجاب : " الأشاعرة من أهل السنة في غالب الأمور، ولكنهم ليسوا منهم في تأويل الصفات، وليسوا بكفار، بل فيهم الأئمة والعلماء والأخيار، ولكنهم غلطوا في تأويل بعض الصفات، فهم خالفوا أهل السنة في مسائل ؛ منها تأويل غالب الصفات" (فتاوىٰ ابن باز، 28/ 256)

❋. **يقول الإمام بن تيمية رحمه الله تعالى** في حديثه عن مسألة أنّ الآخذ بقول من الأقوال أو مذهب من المذاهب لا تلزمه جزئيات لم يعلن عن التزامه بها، وفي هذا يقول : " ولو كان لازم المذهب مذهبا للزم تكفير كل من قال عن الاستواء أو غيره من الصفات أنّه مجاز

ليس بحقيقة، فإنّ لازم هذا القول يقتضي أن لا يكون شيء من أسمائه وصفاته حقيقة " فتاوى ابن تيمية، دار الفكر ج: 20، ص 217. ومنه نفهم أنّ القائلين بمجازية الصفات لا يكفّرون لأنّهم لم يلتزموا بالمقولة المستلزمة عنها وهي نفي حقيقتها، ومنه ندرك أنّ ابن تيمية تفطّن لقضيّة أنّ هناك مسلكا يحترم الكتاب واللغة والدلالة ويفسح المجال للأخذ بالمعنى وتفسير كلام الله وإزالة الشبهات، وهذا الطريق بين الاثبات وإطلاق الدلالات، فهي مجازات عن حقائق إلهية كما استخلص ذلك نصر حامد أبو زيد عن البلاقلاني رحمهما الله .

***. قال الشهيد الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي – رحمه الله تعالى** – في كتابه كبرى اليقينيات الكونيّة، بعد أن بيّن اشتراك المسلمين جميعا في تنزيه الله تعالى من الصفات المنافية للكمال وضرورة ردّ المتشابه إلى المحكم وبناء الإيمان على المحكمات، وأنّهم تعاملوا معها باعتبارين ؛ فهناك من توقّف عندها وأثبتها بتأويل إجمالي وهناك من اتّبع التأويل التفصيلي بما يضع هذه الآيات على صراط واحد من الوفاق مع النصوص المحكمة ففسّروا الاستواء بتسلّط القوّة والسّلطان، ويحذّر من الوجهة التي ذكرناها وهي ترك النصوص على ظاهرها دون إفساح المجال لطبيعة الفهم اللغوي والبياني الصحيح

قائلا : " أمّا ترك هذه النصوص على ظاهرها دون أي تأويل لها سواء كان إجماليا أم تفصيليا فهو غير جائز وهو شيء لم يجنح إليه سلف ولا خلف، كيف ولو فعلت ذلك لحمّلت عقلك معاني متناقضة في شأن كثير من هذه الصفات "(كبرى اليقينيات الكونيّة، دار الفكر، ط8، ص: 139.)

إنّ الإمام البوطي رحمه الله نظر برؤية شاملة إلى كتاب الله عزّ وجل، فجعل الآيات متناسقة متّسقة لا يعارض بعضها بعضا، وفي هذا عظيم الرد على المنكرين والمرجفين والملاحدة وأصحاب المذاهب غير الإسلامية، ويضرب على ذلك مثالا واضحا بقوله :

" تقرأ قوله تعالى ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) **(طه، 5)** وقوله(وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ **(ق: 16)** فإن فسّرت الآيتين على ظاهرهما دون أي تأويل إجمالي ألزمت كتاب الله بالتناقض الواضح، إذ كيف يكون مستويا على عرشه وبدون أي تأويل ويكون في الوقت نفسه أقرب إليّ من حبل الوريد بدون أي تأويل ؟ " (كبرى اليقينيات الكونية ص : 139.)

إنّ البوطي رحمه الله، من حرصه على الدّعوة وردّ شبه المنكرين، اختار طريق ردّ المتشابه إلى المحكم، وقال بالتأويل الإجمالي، وسلك

مسلك المجاز في آيات من القرآن الكريم، هذا كلّه للرّد على كل من يروم ضرب العقيدة أو الإنكار على القرآن والإسلام، والعربيّة وبلاغتها وعموم علومها سلاح يدفع كل مطاعن الخصوم، .. ونرى اليوم رجالا من الهند ورجالا من باكستان وآخرين من بلاد قصيّة يدعون إلى الإسلام ويردّون شبه المنكرين مع قلّة زادهم في لغة الكتاب الكريم، ولكن لو طرحت عليه إحدى هذه الشبه القويّة – وهي ضعيفة إذا ما تصدّى لها عارف بالكتاب وسنن اللغة – لما نبس ببنت شفة، وإنّي لأذكر جيّدا الشيخ أحمد ديدات – رحمه الله وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء – عندما وجد نفسه أمام مسيحي عربي من المشرق يجيد العربية فطرح علية اعتراضات توهّم ممّن نقل عنهم أنّها توحي بالتعارض في كتاب الله، وهي شبه تمّ ردّها في العصر العباسي، ولكن لقلّة زاد الرجل في العربيّة خرج عن صلب المناظرة، أذكرها جيّدا هذه الحادثة ولا تغيب عن بالي مطلقا، إنّ المعرفة بسنن اللسان العربي وبلاغته تهدي إلى الرشاد، ويبقى الأمر محض اجتهاد، فما قاله الله كلّه حق وثابت فهو الحق وقوله الحق، ولكنّ العبارة القرآنية حمّالة أوجه وذات دلالات.

وإنّ كثيرا من قضايا الفكر الإسلامي تتعلّق بالتّعامل مع النّصوص بمنهج معيّن، وليست فقط المسائل العقديّة هي المعنيّة في ما نحن بصدده، فنجد أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، أسيء فهمها وأخرجت من سياقها، واستشهد بها الفقهاء في غير موضوعها لا أدلّ على ذلك من قضيّة نسب ابن الزنا إذا استلحقه أبوه، فنجد أنّ حديث " الولد للفراش " لا يخدم قضيّة الاستلحاق بل لا يشمل حالتها، ومع ذلك يظل هذا الفهم للحديث بوجه ضيّق يحكم في هذه المسألة.

تنبيه: للنّظر والبحث عند الإسلاميين منهج يعتمد على النّقل والفهم العقلي، وهذا منهجنا في أخذ مسائل الشّرع والبيان، وليس من العقلانيّة إفراد العقل بالحكم، كذلك ليس من الشّرع إهمال العقل والتفرّد بالنّص مغفلا من الفهم .

أقول هذا الكلام لأنّ كثرة الدّعاوى والدعوات إلى تجديد الفقه واللغة والبلاغة والدين قد اشتطّت، وجانبت طريق الصّواب الذي أحكمنا منهجه القويم عن ساداتنا العلماء، فمثلا يعلو صوت من يريد التّجديد في البلاغة على طراز غربي محض ويعلو إلى جانبه صوت يريد إزاحة النّحو من أحكام اللغة والنّقد والبلاغة، بل هناك من يتعالى على

النحو العربي ويصفه بأنّه صوري مقدما نحوا ركيكا سخيف المبادئ تافه المقاصد سمّوه بالنحو الوظيفي، لو لم يظهر عند الغرب لما نعق به العربي عندنا، فالعقل الذي يسوّل لصاحبه هدم معلم من معالم الإسلام محروم دوما من الإبداع وكتب عليه الذلّة بالاتّباع اتّباع النصارىٰ واليهود والكفّار دون هداية ورشد، وننظر إلىٰ الإمام الشافعي رحمه الله كيف فتح الله عليه مسائل علم الأصول لمّا تمسّك بالكتاب والسنّة وأخذ اللسان العربي وبلاغته منهجا يحدو حدوه، وهذا النوع من النحو يزعم أن التداول هو أساس القاعدة، وهذا النحو حرب علىٰ النحو العربي الأصيل وقتل للفهم النحوي الأصلي وهو كذلك معول هدم للعقل اللغوي العربي الخالص، ولم يعلم هؤلاء القوم أنّ النّحو جوهر هذه اللغة، وهو محرّك البيان فيها، النّحو لبّ البيان وهو لبّ النّظر العقلي لأنّه المنهج والمنطق الذي اختصّت به العرب دون غيرها من الأمم، فالله الله في التّجديد، فإنّه ليس لعبة وليس رؤية متفرّدة إنّما هو اجتماع آليّات النّظر القويم وعماده مقاصد الصّلاح والإصلاح لهذه الأمّة وعلومها التي هي آلات لفهم شرعها ، وقد يعترض معترض فيقول : إنّا رأينا في كتيّبك هذا تأخذ من مصادر غربيّة وتنوّه بأهميّتها، فكيف تهاجم محاولات التجديد أو النقد للنحو

العربي؟ فأقول وبالله التوفيق : إنّ الأخذ عن الآخر غير المسلم مرهون بشروط من بينها مقصد العمل وغايته ؛ إذ أخذُنا لفكرة قراءة الخطاب في العالم بعيون البلاغة العربيّة – مثلما فعل الغرب ببلاغته التي تعدّ فقيرة أمام بلاغتنا العربيّة – سيتيح للعقل الإسلامي أن يعود إلى زمن كانت عدّة الفهم فيه هي آليات لسانيّة، بلاغيّة و مقاصديّة فقط، وليس أخذنا عن الغرب أخذ تمثّل وأخذ اتّباع أصمّ بل هو أخذ بالنّظر إلى تراثنا العميق وهو أخذ بالنّقد وبالتأصيل وليس أخذ استبدال، ففي الإسلام وشريعته ولسانه العربي لغة القرآن وبلاغة الكتاب العظيم غنى عن كل ما تملكه العقول، إنّما نرى القليل عند الغرب يفلح ويثمر وأهله ليسوا على شيء، أفلا يفلح الكثير عندنا ونحن على الصراط المستقيم؟

فالفرق شاسع بين أخذ عن الغرب يهدف إلى معرفة إلى ماذا توصّل الغرب وكيف ولماذا ؟ وذلك لخدمة أمّة الإسلام وخدمة علوم لسانها العربي وكتابها الكريم بأدوات ليست غريبة عن منهجها القويم، وبين أخذ ينقل القوالب الغربيّة كما جاءت ويرغم العقل المسلم واللسان العربي على اتّباعها بل ويتّهمه بالقصور والتقصير، هذا عقوق وجهل وكبر وعجب وهي الأدواء الكبرى .

إشارة 05 : واخفض لهما جناح الذل كشف حجاجي لاحتمالات المعنى.

لا يعدو تفسير فلان أو فلان من العلماء للقرآن العظيم أن يكون اجتهادا منه، فتفسيره ليس مقدّسا، إنّما هو هامش على مركز مقدّس[1]، وحاشية على كلام لا يأتيه الباطل، وفي التفاسير نجد سوق الحجاج نافقة ومزدهرة، كل يحاجج عن رأيه وعن مذهبه، ويستخدم مختلف الأساليب لإرباك موقفك، وإقناعك أو استهوائك واستمالتك إلى رأيه وحتى سفسطتك ومغالطتك، وكان من سعيد حظّي أنّي طالعت مرارا ماكتبه الأستاذ الدكتور علي الشبعان في كتابه الفذ "الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل " وهي دراسة استهدفت آليات الإقناع والحجاج عند المفسرين (بالأثر، بالرأي وبالإشارة)، ومن بين الأمور الواجب التنبيه عليها أنّ استثمار النظريات الغربية الوافدة بعد استغراق فهمها وملاءمتها ينتج لنا قراءات مغايرة، فنظريّة الحجاج (L'argumentation) أو البلاغة الجديدة (La Nouvelle Rhétorique)من شأنها أن تكتشف

---

[1] **يبقى تفسير سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم حالة خاصة يقينيّة لا جدال فيها لكنّ تفسيراته التي صحّت في الأحاديث ليست كثيرة ولا تشمل كل القرآن الكريم، كذلك تفسير القرآن بالقرآن أول مراتب التفسير وأصحّها وكذلك هو محدود ولا يمكن تمحّل العلاقات بين آيات لا صلة بينها، وقد سبق إلى ذلك علماء أجلاء وكانوا ينظرون أول ما ينظرون إلى القرآن .**

طرق الحجاج وتقنياتها بين الطرق الاتصالية (Procédés de liaison)، والانفصاليّة (La dissociation des notions) فالأولى تتجلى فعاليتها في التقريب بين المتباينات وهيكلتها لتصبح كلّا منسجما يساعد على مجابهة الخصم ودحض فكرته، والثانية تعمل على إنشاء وتوليد حقائق جديدة بهدف الحجاج، ونجد مثلا عند الطبري في تفسيره الأثري كانت إحدى تقنيات الطرائق الاتصالية حاضرة وبقوّة، وهي حجّة السلطة (Argument d'autorité) وهي من الحجج المؤسّسة على بنية الواقع أو تعتمد على الواقع (Les arguments basés sur la structure du réel)، وهدفي من الكلام عنها الكشف عن جانب من استراتيجيات المفسرين، وأنّ أعمالهم لا تعدو كونها رؤية احتماليّة ليست ملزمة ولا يمكن فرضها كعقيدة يقينيّة على الخلق، ويربط شاييم بيرلمان وتيتيكا حجّة السلطة بالمكانة والرتبة وهي خطّة بلاغية إقناعية ويحتل مكانة ذات أهميذة بالغة، ويستثنيه بيرلمان فقط إذا مس بالحقائق لأنّه كثيرا ما يستعمل لفرض أفكار لا تمت بالصلة إلى الحقيقة وهنا يتم استبعاده (Perelman et tyteca ,Traité de L'argumentation,p.412) .

وقد لا حظ الشبعان في دراسته حضورا مكثّفا لحجّة السّلطة (إجماع، أنبياء، سلف، عقيدة، سلطة الكتاب) وهدف الطبري بناء

نوع من " وثاقة الاعتقاد وضربا من رسوخ الإيمان بما يلقى من فهوم وما يبسط من مقاصد يستقبلها الجمهور استقبال الرضى والطاعة لا جدال ولا طعن "(علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2010، ص : 165)

وكذلك في تعامل رافضي المجاز مع آيات تنضح بمائه، فيسلكون السبل الحجاجيّة لترسيخ رأيهم، وعلى المتلقي أن يذعن، وهو لا يدري أنّ ما يقرؤه لا يعدو أن يكون احتمالا إقناعيا ووجها من أوجه الدلالة ليس إلا، وسنجد مثلا الشنقيطي في أضواء البيان أو رسالته منع جواز المجاز، يلجأ إلى ابن تيمية وابن القيم كحجّة سلطويّة، بل ويجعل قارئه يعتقد أنّه هو من أصاب كبد الحقيقة وأنّه يحتجزها ولا مناص من اتباعه، وانظر إليه وهو يأخذ مريديه بخطّة يكشفها كل من التفت قليلا إلى استراتيجيات الحجاج الاحتمالية وحقيقة أنّ المفسّر يكتب حاشية بقلم رفيع سيمحوه الزمن ليظل النص مركزا قائم الذات، ولا تعدو التفسيرات أن تكون مجرد احتمالات متفاضلة برؤية فينومينولوجية كانطيّة محضة، لا تقبض على الحقيقة بل تتنسّم منها نسائم بقدر اقترابها من حقائق اللغة، التي تجعل من المجاز وغيره من التقنيات والمقاصد سبيلا لكشف المعنى وتوليد الدلالة.

ومفسّر مثل الشنقيطي وجد دعما قويّا من جهات –عقديّة ومدرسيّة –رأت في تفسيره تبريرا شبه بلاغي ما كانوا يعتقدون أنّهم سيحصلون عليه، فكلام هذا الاتجاه في البلاغة القرآنية كان محدودا ولا يزال كذلك، فلم يقدّموا لنا بديلا لدرس بلاغي يضاهي الدرس الذي ازدهى بأساطين الاعتزال والسادة الأشاعرة والماتريديّة، فتفسيره هذا جاء موافقا لجهات تريد للعقل العربي ليس التسطيح فقط، بل وحرمانه من الفهم وتعطيل ملكاته اللغوية والبلاغيّة، فيفهم علماء السّلطان ثم ينقلون للعامّة ما فهموه أو ما يجب عليهم فهمه ..، فيتم تنفير الطلاب من النماذج الكبرة للتفسير الأثري بحجّة السّلطة " قال عالم فلان عنه كذا وكذا من المطاعن " ويتم التشنيع على التفاسير العقلانية والإشاريّة ورفضها وإظهار بديل يغري بتحريك ملكة الرفض بحجّة الاتجاه (L'argument de direction) فيغدو سامعهم متحرّكا على خطّ رسموه له لا يفارقه قيد أنملة.

يأخذ الشنقيطي مريديه بخطّة عنوانها قوله :" وما يذكره كثير من متأخّري المفسرين القائلين بالمجاز في القرآن كله غير صحيح، ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه من نقل ولا عقل" (منع جواز المجاز، المكتبة التوفيقية، ط2014م ص : 323)

كل كلام الشنقيطي هنا هو حجاج، والحجاج ليس ملزما فهو احتمالي، هذا ناهيك عن إمكانية كشف حجاج مغالط في كلامه.

❋. كلّ ما يقولونه غير صحيح = حجّة الاتجاه، فهو ينمّي في قرّائه ملكة الرفض والرد ويغري بالجديد الذي يحمله لهم، وهذه التقنية الحجاجيّة سبق للزمخشري المعتزلي رحمه الله أن مارسها ضدّ التفسير الأثري (علي الشبعان، الحجاج والحقيقة ص:287.)

❋. لادليل عليه= هنا حجاج مغالط قائم على استغلال جهل المخاطب، فلايعقل أن تبنى تفاسير شهد لها هو بالكثرة على انعدام الدليل وبالتالي اللاشرعية، هذا استغفال شنيع للقارئ.

❋.من متأخّري المفسرين = سفسطة التراثي (Appeal to tradition) وهي على عكس سفسطة الحداثي، فهو يقيم دعواه على أنّ هذه تفاسير المتأخرين أمّا التراث القديم – السلف هنا – فلم يكن كذلك، وهو يتّبع هذا التراث.

(ينظر:رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة دار الكتاب الجديد، ط2010)

❋. من نقل ولاعقل : هذا يستتبع السفسطة كذلك وفيه جانب من حجّة الاتجاه، إذ كيف يعقل أن تعيش عقول الأمّة قبل الشنقيطي والتيّار المتطرّف على تفاسير لا دليل عليها من نقل ولا عقل، أكانت

أمّة مخدّرة أم رهنت عقلها ؟ وهذا ما لا تتقبّله الضرورات التاريخية الشاهدة على تاريخ الحضارة العربيّة الإسلامية.

كيف يكون العصر العباسي مزدهرا (علميا وعقليا وأدبيا وفقهيا) مع رمي فرقه بالضلالة (أشهر فرقه)وعلمائه كذلك؟ وكيف يكون عصرنا في انحطاط وتراجع وتكالب الأعداء فكرا وسلاحا مع وجود علماء يعرفون الحقيقة المطلقة ؟ معضلة لن تجد لها حلّا، فالانحطاط معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، فلا تسأل هذا من باب عدم الخروج عن الحاكم.

بعد أن تقرّرت مسألة كون التفاسير لا تعدو كونها احتمالا من احتمالات المعنى، وسوقا حجاجيّة وفي بعض الأحيان سفسطائيّة، نرجع إلى قول الله الحق في كتابه الكريم : " **واخفض لهما جناح الذل**"

كلّما قرأت قول الشنقيطي " أنّ الجناح هنا مستعمل في حقيقته؛ لأنّ الجناح يطلق لغة حقيقة على يد الانسان وعضده وإبطه " (منع جواز المجاز ص : 322) كلّما قرأت قوله هذا، أقول في نفسي وهل للطائر يد؟ مثلما أنّ يد الانسان تسمّى جناحا؟

نعم وقد نص على ذلك ابن منظور بقوله:" وجناحا الطائر يداه وجناح الإنسان يده " (لسان العرب، باب جنح) ويردّ معنييهما إلى الميل

لأنّ الجناح في أحد شقيه، ونحن نوافق على أن تكون يد الإنسان جناحا لورود ذلك عن الأئمة الثقات، وأنّ جناح الطائر تسمّى يدا أيضا ممّا لا مراء فيه.

أمّا أن تكون للذل جناح فهنا موضع الجدل ؛ فما المقصود بجناح الذل/ يده؟ عندها نقول"شبّهناه بإنسان... والمجاز مخرج مخرج الاستعارة المكنية" أم المقصود جناح طائر؟ فنجعلها كذلك مجازا على وجه الاستعارة المكنية ويكون الطائر مستعارا منه .

هذان الوجهان يقرّهما واقع اللغة ولكن يأبى الرّجل إلا أن يقول :

❋. إطلاق العرب خفض الجناح كناية عن التواضع ويستشهد على ذلك بالشعر .

❋. إضافة الجناح إلى الذل – في رؤيته – ليس مجازا لأنّه – ولغرابة الفهم – يستوي مع قولنا " حاتم الجود "، فجناح الذل = جناحا / يدا ذليلة.

ونسأل نحن : هل حاتم الجود هي ذاتها حاتم الجواد ؟

هل إضافة الاسم إلى المصدر هي ذاتها في دلالتها وموقعها إضافته إلى ما يشتق منه؟

حاتم الجود = أنّ للجود حاتما ولا يسع الجود غيره، وهذا من باب المبالغة.

حاتم الجواد = وصف له بما يمكن أن يتّصف به غيره. فهي في المرتبة دون الأولى.كذلك جناح الذل (الجناح = يد) ليس في المرتبة والفهم كجناح ذليل، وصاحب أدنى فهم في العربية ودلالاتها يفهم ويعي ذلك، والقرآن يبتغي البلاغة دوما والعبارة فيه دوما ترتقي على غيرها من العبارات وتتجاوزها بمراتب لا تحصى، أيعقل أن نجد التساوي بين عبارتين (جناح الذل) و (جناح ذليل) ؟ والأولى تبلغ حدّ النشوة من كيمياء الغرابة بين طرفين تآلفا بفعل التركيب المجازي.

الذل حالة معنوية وهي معنى كلي ومصدر جامع لمعاني تحمل منها المشتقات ولا تستنزفها، فهو دال على معناه بالكمال والأصل وإضافة الجناح على سبيل الاستعارة والمجاز بما يحمله من معنى الميل إليه يجعله يهيمن على معنى التواضع، فكأنّ هذا الذل إنسان / طائر لم يكتف بمعنى الذل فيه بل زاد فخفض جناحه ميلا وتواضعا ورأفة، هذا من معاني ودلالات هذه العبارة، ومازالت لتكشف لنا عن كثير منها، ونحن نروم تدبّر كتاب الله عزّ وجل في حدود ما يسمح به المنهج العلمي الصحيح الموافق للكتاب والسنّة ولغة العرب وسننها في

كلامها، وعدم الوقوف عند ظواهر ستزيد كتاب الله بعدا عن قوم هجروه، فهذا من باب الترغيب والتقريب تقريب الكتاب العزيز إلى خلق الله تعالى، وقد أدرك الجرجاني رحمه الله تعالى فعاليات المجاز، وتفطّن إليها، فكانت نهضة بلاغية عزّ نظيرها ومازلنا نقرأ ونستنبط منه ومن أعلام آخرين (سنّة / معتزلة / شيعة)، ونحمد المولى أنّهم لم يقفوا مثلما وقف جمع كريم من علماء عصر ماض وهذا العصر عند عتبات الآيات، فنكون قد حرمنا نعمة التدبّر في كتاب الله تعالى .

أليست لفظة اليد أسبق من لفظة الجناح ؟ وما الجناح ؟ في القرآن تطلق على اليد والعضد والإبط. أمّا اليد فترتبط دوما بالجارحة المعروفة في الخطاب الإنساني وهذا يعني أنّ الاشتراك حصل في الجناح وبقيت اليد بمنأى عنه نسبيا، وهذا يثبت الاحتمال القائل بأنّ جناح الذل إنّما هي استعارة مكنية فجعلنا للذل يدا على تشبيهه بالانسان، بغرض تشخيصه على طريقة التخييل التي يذكرها السيد قطب الشهيد رحمه الله في التصوير الفني في القرآن إذ يقول عن هذه الآية :" وكأنّما للذل جناح يخفض من الرحمة بالوالدين ".

ويبلغ التشبث بالرأي أن يقول ابن القيم في الصواعق : " إنّ معنى إضافة الجناح إلى الذل أن للذل جناحا معنويا يناسبه لا جناح ريش "،

لو أنّنا نمضي على خطّة هؤلاء العلماء نكون قد قضينا على العقل البلاغي واللغوي، فابتسامة الشمس معنوية تناسبها!!! لا صورة ولا خيال ولا تشخيص... قضاء مبرم على جماليات الأدب والشعر ودراساته، لتغدو البلاغة مقولتين نقولب فيهما كل الصور.

إنّ الاحتمالات التي يعرضها مختلف المفسرين ويعضدها جانب من اللغة والبيان ولا تعارض نصا صريحا من كتاب أوسنة تعتبر احتمالا واردا يستوي وغيره، التطرّف في الرأي يهدم المؤسسات العلمية والمشاريع الناجحة.

إشارة 06 : معراج الدلالة والفهم في حقائق المجاز وبصائر التأويل، حوار بين نصوص التفسير.

قال الله تعالى : ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ **(ص : 75)**

ونجد علماء من المسلمين في بدايات العصر العباسي وما بعده دعتهم ظروف عصرهم وما واجهوه من فرق وادّعاءات وجدوا أنفسهم يخوضون في مسائل الإلهيات، وما كان لهم أن يقفوا موقف المثبت المنزّه المتفرّج على ساحة تضطرب بأقوال الزنادقة الذي أرادوا إظهار التناقض المزعوم في كتاب الله وسنّة رسوله، وإنّ عصر الصحابة

والتابعين خلا من محاولات التأويل ورد المتشابه إلى المحكم، والأخذ بعنان المعارف البلاغية ذلك أنّهم كانوا على الفطرة اللغويّة يفهمون ما يجب أن يفهم العربي الموجّه إليه خطاب القرآن الكريم، ولم يكن هناك معاند في هذا الشأن فكلّهم فهموا من الآيات – آيات الصفات[1] – ما تقرّه شريعتهم اللغويّة والبيانيّة وفهمهم الرفيع، ولكن لمّا دخلت أمم أخرى لها سابقة في الإلهيات والعقائد المنحرفة برز الإشكال، ووجد علماء السنّة من الأشاعرة وغيرهم أنّ من الواجب الوقوف لردّ مطاعن الزنادقة والشعوبيّة، فاجتهدوا في ردّ المتشابه إلى المحكم، وأخذوا في تبيان ما أشكل من الآيات الموهمة للتشبيه أو التجسيم بطريقة التنزيه والتأويل الإجمالي أو التفصيلي، وكان المجاز من آلات هذا الجهاد العظيم ضد الزنادقة، إيمانا منهم بأنّه لا يردّ الحقيقة الإلهية وليس من الكذب، بل هو سبيل لإبراز معاني ودلالات لا يخلو منها

---

[1] **سبق وأن بيّنا أنّ عقيدة السلف التي نثبت عليها هي الإيمان بهذه الصفات على ما يليق بالله تعالى وتفويض معناها لله مع تنزيهه عن ظاهرها المستحيل في حقّه تعالى وأنّ للخلف الذين دافعوا عن الإسلام طريق التأويل الذي كان لا محيد عنه بل إنّ هناك أمورا عقدية في الصفات حصل الإجماع على تأويل واحد لها فقد غدا ضرورة لمواجهة الزنادقة والمشبّهة الغلاة، فالطريق الأول أسلم والطريق الثاني أعلم، وكلاهما حق يبتغي غاية واحدة، ولا يجب تكفير من اتّخذ السبيل الثاني وثبت عليه،فلكل مشرب ولكل غاية واجتهاد، وللعامّة ميدان وللخاصة مجال، وفي عصرنا هذا يجب أن نقف على حقائق التراث، فقد بدأت الدعوات في الغرب لإحياء الإلهيات والميتافيزيقا وليس غريبا أن يطل علينا المتغرّبون بآراء في الألوهيّة تفوق في شرها ما لاقاه المتكلّمون.**

الفهم السليم الصحيح الموافق للكتاب والسنّة، متّخذين سبلا وطرقا لتبرير اجتهاداتهم، وكانت البلاغة أداة بين أيديهم حقّقوا بها أغراضهم، فلا نرميهم بالضّلال ولا نسفّه أقوالهم، بل نحسبهم من المجتهدين، والجميع يعلم مصير المجتهد بين الصواب والخطأ، ونعرض الآن لنصوصهم في هذه المسألة .

ملحق بنصوص تفاسير العلماء لقوله تعالى : ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ **(ص : 75)**

ونقدّم للقارئ نصوصا من تفاسير العلماء في هذه الآية الكريمة، ليرىٰ أنّ هذا الجمع ما كان ليتواطأ علىٰ خطيئة أو نقيصة في حق الله تعالىٰ، بل اجتهدوا في فهم آيات الذّكر الحكيم وأبانوا عن وجهتهم، فمن ارتضاها عن بيّنة لقي الله بها وله أجر، ومن ردّها وأخذ بغيرها لقي الله بها كذلك وأجره علىٰ الله تعالىٰ .

***قال أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي** (786–876هـ).في تفسير قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قال : : "وقوله تعالىٰ : { بِيَدَىَّ } عبارةٌ عن القُدْرَةِ والقُوَّةِ ." (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)

***قال أبو السعود** (898 – 982هـ)في تفسيرها : "{ قَالَ يا إِبْلِيسَ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ } أَي خلقتُه بالذَّاتِ من غير توسُّطِ أبٍ وأمَ والتَّثنيةُ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بخلقِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المستدعِي لإجلالِه وإعظامِه قَصْداً إلىٰ تأكيدِ الإنكارِ وتشديدِ التَّوبيخِ ."(إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم)

***قال شيخ الإسلام العز بن عبد السلام** (577 -.660هـ).: قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) { بِيَدَىَّ } بقوتي، أو قدرتي، أو توليت خلقه بنفسي، أو خلقته بيدي صفة ليست بجارحة { أَسْتَكْبَرْتَ } عن الطاعة أم تعاليت عن السجود ." (تفسير العز بن عبد السلام)

***قال ابن عطيّة الأندلسي** (481–541هـ): وقرأ جمهور الناس « بيديّ » بالتثنية . وقرأ فرقة : « بيديَّ » بفتح الياء، وقد جاء في كتاب الله : { مما عملت أيدينا} [يس : 71] بالجمع . وهذه كلها عبارة عن القدرة والقوة، وعبر عن هذا المعنى بذكر اليد تقريباً على السامعين، إذا المعتاد عند البشر أن القوه والبطش والاقتدار إنما هو باليد، وقد كانت جهالة العرب بالله تعالى تقتضي أن تنكر نفوسها أن يكون خلق بغير مماسة، ونحو هذا من المعاني المعقولة.(المحرر الوجيز).

***قال الشوكاني** (1173هـ ـ 1250هـ) : في تفسير آية 75 ص حول اليدين : قال مجاهد : اليد هنا بمعنى : التأكيد، والصلة مجازاً كقوله : { ويبقى وَجْهُ رَبّكَ } [الرحمن: 27] . وقيل : أراد باليد القدرة، يقال: ما لي بهذا الأمر يد، وما لي به يدان أي: قدرة، ومنه قول الشاعر:

تحملت من عفراء ما ليس لي به ... ولا للجبال الراسيات يدان

وقيل : التثنية في اليد للدلالة على أنها ليس بمعنى : القوّة، والقدرة، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه، و «ما» في قوله : { لِمَا خَلَقْتُ } هي : المصدرية، أو الموصولة . وقرأ الجحدري : (لما) بالتشديد مع فتح اللام على أنها ظرف بمعنى: حين كما قال أبو عليّ الفارسي . وقرئ : " بيدي " على الإفراد. (فتح القدير)

❊**قال البيضاوي** (تـ691هـ): { قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } خلقته بنفسي من غير توسط كأب وأم، والثنية لما في خلقه من مزيد القدرة واختلاف الفعل، وقرئ على التوحيد.(أنوار التنزيل وأسرار التأويل).

❊**قال الطاهر بن عاشور** (1393هـ) : "وحُكي هنا أن الله قال له : {لِمَا خلقْتُ بِيدي} ،أي خلقته بقدرتي،أي خلقاً خاصّاً دفعة ومباشرة لأمر التكوين،فكان تعلق هذا التكوين تعلقاً أقربَ من تعلقه بإيجاد الموجودات المرتَّبة لها أسباب تباشرها من حمل وولادة كما هو المعروف في تخلق الموجودات عن أصولها.ولا شكّ في أن خلق آدم فيه عناية زائدة وتشريف اتصال أقرب .فاليدان تمثيل لتكوّن آدم من مُجرد أمر التكوين للطين بهيئة صنع الفخَّاري للإِناء من طين إذ يسوّيه بيديه.وكان السلف يُقِرّون أن اليدين صفة خاصة لله تعالى لورودهما

في القرآن مع جزمهم بتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات وعن الجسمية وقصدهم الحذر من تحكيم الآراء في صفات الله، أو أن تحمل العقول القاصرة صفاتتِ الله على ما تعارفته {ولتصنع على عيني }[طه: 39]وقال مرة{ فإنك بأعيننا } [الطور : 48.(تفسير التحرير والتنوير)

❋**قال ابن عجيبة الحسني** : { قال يا إبليسُ ما منعك أن تسجدَ } أي : عن السجود { لِمِا خلقتُ بيديَّ } ، بلا واسطة أب ولا أم، امتثالاً لأمري، وإعظاماً لخطابي، ولَمَّا كانت الأعمال تُباشر في الغالب باليد، أطلقت على القدرة . والتثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه السلام، المستدعي لإجلاله وإعظامه، قصداً إلى تأكيد الإنكار، وتشديد التوبيخ، وسيأتي في الإشارة بقية الكلام في سر التثنية .(تفسير ابن عجيبة).

❋**يقول فخر الدين الرازي**[1] (544 – 606هـ). بعد إبطال التشبيه والتجسيم، والرد على مختلف المعارضين : " فنقول ذكر العلماء في لفظ اليد وجوهاً الأول : أن اليد عبارة عن القدرة تقول العرب ما لي بهذا

[1] الفخر الرازي عقل مميّز في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، كان يتحلّق حوله طلبته، وإذا خرج كان موكبه لا يقل عن موكب الأمراء والسلاطين، وإذا وجّهت إليه المسألة يجيب عنها تلاميذه الكبار فإذا كانت موغلة في التعقيد، تولّى هو الرد عليها وكان آية من آيات الله في البيان، ألّف في البلاغة والتفسير والكلام والأصول وهو ممّن منّ الله عليهم بالمال في الدنيا والعلم، والله يؤتي فضلة من يشاء.

الأمر من يد، أي من قوة وطاقة، قال تعالى : { أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ } [البقرة : 237]، الثاني : اليد عبارة عن النعمة يقال أيادي فلان في حق فلان ظاهرة والمراد النعم والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة أو نعم الدين والدنيا الثالث : أن لفظ اليد قد يزاد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى : { بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ } [الأعراف : 57] .والذي تلخص عندي في هذا الباب أن السلطان العظيم لا يقدر على عمل شيء بيده إلا إذا كانت غاية عنايته مصروفة إلى ذلك العمل، فإذا كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازاً عنه عند قيام الدلائل القاهرة . فهذا ما لخصناه في هذا الباب، والله أعلم ."(مفاتيح الغيب)

❋**قال أبوحيان الأندلسي** (654 – 745هـ) : " خلقت بيدي، على الإفراد؛ والجمهور : على التثنية؛ وقرئ بيديّ، كقراءة بمصرخي؛ وقال تعالى : { مما عملت أيدينا } بالجمع، وكلها عبارة عن القدرة والقوة، وعبر باليد، إذ كان عند البشر معتاداً أن البطش والقوة باليد . وذهب القاضي أبو بكر بن الطيب إلى أن اليد صفة ذات . قال ابن عطية : وهو قول مرغوب عنه ." (البحر المحيط).

❋قال السمرقندي (تـ 375هـ) "{ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ} يعني:الذي خلقته بيدي قال بعضهم نؤمن بهذه الآية ونقرؤها، ولا نعرف تفسيرها . وقال بعضهم : نفسرها بما يليق من صفات الله تعالى . يعني : خلقه بقدرته، وقوته، وإرادته . فإن قيل : قد خلق الله عز وجل سائر الأشياء بقوته، وقدرته، وإرادته . فما الفائدة في التخصيص هنا؟ قيل له : قد ذكر اليد في خلق سائر الأشياء أيضاً، وهو قوله: { أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أنعاما فَهُمۡ لَهَا مالكون } [يس : 71] ويقال : { لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ } أي : بقوتي . قوة العلم، وقوة القدرة. ويقال: { خَلَقۡتَهُ بِيَدَيَّ } أي : بماء السماء، وتراب الأرض، كقوله : { إِنَّ مَثَلَ عيسىٰ عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [آل عمران : 59] وكما قال عليه السلام : « خَلَقَ الله تَعَالَياالخَلۡقَ مِنۡ مَاءٍ » وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل حرف منها ظهر وبطن . وكذلك الأخبار قد جاء فيها أيضاً ما له ظهر وبطن . " (تفسير بحر العلوم)

إنّ نصوص التفسير التي أوردناها لتبيّن أنّ العقل العربي الإسلامي كان يفتح أبواب الفهم على مصراعيها، وهذا ما مكّن الدّرس البلاغي من الازدهار والإيناع، وإنّنا أمام مسلكين اثنين :

*إغلاق باب القول بالمجاز (وبعضهم يحرّمه)في آيات الصفات وادّعاء أنّها ممّا لا سبيل إلى فهمه وهذا ادّعاء على كتاب الله أنّه لا يفهم وهو الذي وصفه ربّنا بالمبين.

*إغلاق باب المجاز في اللغة والبلاغة وجعل الدرس البلاغي شرذمة من الأساليب لا نسق لها ولا قاعدة تحكمها كأعراب تفرّقهم ريح الصّحراء.

وكلاهما شرّ يمحق لغتنا ويجعلها تتخلّف في علومها أمام لغات كانت بالأمس لا تذكر فغدت ذات شأن، ونحن اليوم يقف بيننا من ينكر أرقى خواص اللغة العربيّة وباب من أبواب شجاعتها.

إنّ إعلان الحرب على المجاز هو حرب على آية من آيات الله في لغة كتابه الكريم، ولصالح من ؟ هل هناك بديل؟ هاتوا بديلا عن هذا الدرس البلاغي؟ درسا خالصا ليس فيه مجاز، وإذا وجد فسيكون درسا يعمل على هدم بنيان اللغة فيكون معولا لأعدائها.

ولا بدّ من التنبيه على أنّ من ادّعى منع المجاز وعدم وقوعه لم يقدّم درسا بلاغيّا بديلا، فنجدهم لمّا لخّصوا دروس البلاغة كتبوا في المرسل والعقلي والاستعارة عين ما كتبه التفتازاني مع الفارق بين عقل التفتازاني وعمق القزويني وتحليل الجرجاني وغيره من الفطاحل وبين

التلخيص الجاف الذي قدّم فيه هؤلاء المنكرون للمجاز البلاغة في ثوب ألبسوه شرعيّة السّلف على مقاسهم الخاص أو مقاس عقول تعاني من الشرود والتشرّد الفكري.

وغايتهم في كل مجاز أن يقولوا عنه هو أسلوب من أساليب اللغة، وبهذه الطريقة تصبح البلاغة شرذمة من الأساليب لا ضابط لها، تجدها هنا وهناك ولا قياس فيها، ولو أطلقت يدهم في درس أصول الفقه لفعلوا به الأفاعيل ليغدو هو الآخر شرذمة من القواعد لا ضابط لها، هذا هو العقل الأعرابي الذي يشرّد النّسق المنضبط ويحيل الخطاب إلى فوضى عارمة، وهذا ما سيمكّن من إخراج فتاوى على مقاس أهل البدع والافتراءات، فتوى لضرب استقرار المسلمين، وفتوى للقضاء على عقول المسلمين وإغراقها في ماجريات عابرة.

لماذا لّما كان الاعتزال والسّادة الأشاعرة والماتريديّة وأهل الحديث الحقيقيون انتصرنا في حطّين، وكان مشروع الموحّدين أعظم مشروع يوحّد المغرب العربي والأندلس جهادا واجتهادا ؟؟ ولماذا اليوم لّما انقلبت الموازين وكشفوا (هم) لنا فجأة أنّ الأمّة لم تكن سلفيّة وأنّ السيوطي رحمه الله مجانب للصواب وكذلك السنوسي والرازي والباقلاني، وأصبح الناس فوجدوا منهجا أجرجه قوم سمّوه منهج

السّلف، لماذا لمّا ظهرت هذه الأفكار لم ننتصر؟ ونحن في نكسة بعد نكسة في خنوع وذلّة وخضوع؟ أليس حرّيا بظهور منهج أهل الحق والفرقة الناجية أن يشكّل هذا دفعا للنصر والصلاح ؟؟ لماذا إذن كل هذا الخسران الأخلاقي والعقدي والتناحر السياسي والحربي بين إخوة مؤمنين ؟؟ ثم يدّعي باسم اتباع السّلف أنّ من يغايره في المنهج ليس من الفرقة الناجية، حتّى ليعتقد الواحد من الناس أنّ الفرقة الناجية ناد يملك مفاتيحه هؤلاء القوم !! الفرقة الناجية لمّا تحدّث عنها الشاطبي رحمه الله أبدع في ذكر مقتضيات فهمها ووجودها ومعاييرها في كتاب الاعتصام، ولكن للأسف العقل الذي يقرأ اليوم الاعتصام لا يعتصم بحبل الفهم ولا ببلاغة مقاصد الخطاب.

الفصل الثالث :

ملحق بأهم نصوص المجاز عن الأئمّة الأخيار في اللغة والبلاغة والتفسير.

1-نصوص قديمة :

1-قال الخليل بن أحمد الفراهيدي (تـ 170هـ) - رحمه الله - في معجم العين: قال: «البَائِضُ» وهو ذَكرٌ، فإن قَالَ قائل: الذَّكَرُ لا يَبِيضُ، قيل: هو في البَيْضِ سَبَبٌ؛ ولذلك جعله بَائِضًا، على قياس والِدٍ بمعنى الأب، وكذلك البَائِضُ، لأَنَّ الوَلَدَ من الوَالِدِ، والوَلَد والبَيْض في مذهبه شيء واحد."

2-قال أبو زيد القرشي (تـ 170هـ) - رحمه الله - في جمهرة أشعار العرب:

"وقد يداني الشيءُ الشيءَ وليس من جنسه، ولا يُنْسَبُ إليه، ليَعْلَم العامَّة قُرْبَ ما بينهما، وفي القرآن مثل ما في كلام العرب من اللَّفْظِ المختلف، ومجاز المعاني"، وذكر قول امرئ القيس:

قِفا فاسألا الأطلالَ عن أُمّ مالك وهل تُخبِرُ الأطلالُ غيرَ التّهالُكِ

3/ قال سيبويه (تـ 188هـ) - رحمه الله - في الكتاب :

"ومما جاء على اتّساع الكلام والاختصارِ قوله تعالى جدّه: " واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها " (يوسف 82) إنّما يريد: أهلَ القرية، فاختصر، وعمل الفعل في القرية كما كان عاملاً في الأهل لو كان هاهنا. ومثله: " بل مكر الليل والنهار "(سبأ 33)، وإنّما

المعنىٰ: بل مكر كان فىٰ الليل والنهار. وقال عزّ وجلّ: " ولكن البر من آمن بالله "(البقرة 177)، وإنّما هو: ولكنّ البِرَّ برُّ من آمن بالله واليوم الآخِر. ومثله فىٰ الاتّساع قولُه عزّ وجلّ :"وَمَثَلُ الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً "(البقرة 171)، وإنَّما شُبّهوا بالمنعوق به. وإنَّما المعنىٰ: مَثَلُكم ومَثَلُ الذين كفروا كمثل الناعِق والمنعوقِ به الذىٰ لا يَسمع. ولكنه جاء علىٰ سعة الكلام والإِيجاز لعلم المخاطَب بالمعنىٰ.""

4-قال الفراء (تـ 207هـ) – رحمه الله – في معاني القرآن:

"وقال جل وعز (بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه ان شاء) هذا مجاز والمعنىٰ فيكشف الضر الذي من أجله دعوتموه وهو مثل (واسأل القرية) في المجاز 39 وقوله جل وعز (ولقد أرسلنا الىٰ أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء) قيل البأساء الجوع والفقر والضراء نقص الاموال والانفس بالمرض والثمرات."

5-قال أبو عبيدة (تـ 210هـ) – رحمه الله – في كتابه مجاز القرآن :

قالوا: إنما أُنزل القرآن بلسان عربي مبين، وتِصداق ذلك في آية من القرآن، وفي آية أخرىٰ: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسَان قَوْمِه) (144)، فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلىٰ النبي صلىٰ الله

عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسُن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص. وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب، والمعاني. ومن المحتمل من مجاز ما اختصر وفيه مضمر، قال: (وَانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَن أمشُوا وَاصْبِروا) (386)، فهذا مختصر فيه ضمير مجازه: (وانْطَلَقَ المَلأُ منهم)، ثم اختصر إلى فعلهم وأضمر فيه: وتواصوا أن أمشوا أو تنادوا أن أمشوا أو نحو ذلك. وفي آية أخرىٰ: (مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذا مَثَلاً) (226)، فهذا من قول الكفار، ثم اختصر إلى قول الله، وأضمر فيه قل يا محمد: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً) (226)، فهذا من كلام الله.

ومن مجاز ما حُذف وفيه مضمَر، قال: (وسَلِ الْقَرْيَةَ التي كُنَّا فيهَا والعيرَ التي أَقبَلْنا فيها) (1282)، فهذا محذوف فيه ضمير مجازه: وسل أهل القرية، ومَن في العير.

ومن مجاز ما كُفّ عن خبره استغناءً عنه وفيه ضميرٌ قال: (حَتَّىٰ إذَا جَاؤُهَا وفُتِحَت أَبْوابها وَقَال لَهُم خَزَنَتُها سَلاَمٌ علَيْكُم طِبْتُم فَادْخُلُوهَا خَالِدِين) (3973)، ثم كُفّ عن خبره.

ومن مجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد الذي له جماع منه ووقع معنى هذا الواحد على الجميع، قال: (يُخْرِجُكُم طِفْلاً) (225)، في موضع: (أطفالا). وقال: (إنما المُؤْمِنُون إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم) (4910) فهذا وقع معناه على قوله: (وإِن طَائفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقتَتَلُوا) (499)، وقال: (وَالمَلَك عَلَىٰ أَرْجَائها) (697)، في موضع: (والملائكة).

ومن مجاز ما جاء من لفظ خبر الجميع على لفظ الواحد، قال: (وَالمَلاَئكَةُ بَعدَ ذِلكَ ظَهِيرٌ) (664)، في موضع: ظُهَراءُ.

ومن مجاز ما جاء لفظه الجميع الذي له واحد منه، ووقع معنى هذا الجميع على الواحد، قال: (الذينَ قَالَ لَهُم النَّاسُ إن النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكمُ) (3173)، والناس جميع، وكان الذي قال رجلا واحداً. (أَنا رَسُولُ رَبِّك) (1919)، وقال: (إنّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بقَدَر) (5449)، والخالق الله وحده لا شريك له.

ومن مجاز ما جاء لفظه الجميع الذي له واحد منه ووقع معنى هذا الجميع على الاثنين: قال: (فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ) (410) فالإخوة جميع ووقع معناه على أخوين، وقال: (إِنَّما المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بينَ أَخَوَيْكمُ) (4910)، وقال: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) (541)، في موضع يديهما.

6-قال الجاحظ (تـ 255هـ) – رحمه الله – في كتابه الحيوان :

وقد يشبِّه الشعراءُ والعلماءُ والبلغاءُ الإنسانَ بالقمر والشمس، والغيثِ والبحر، وبالأسد والسيف، وبالحيَّة وبالنَّجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدِّ الإنسان، وإذا ذمُّوا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القِرد والحمار، وهو الثور، وهو التَّيس، وهو الذيب، وهو العقرب، وهو الجُعَل، وهو القرنْبَى؛ ثم لا يُدخِلون هذه الأشياءَ في حدود الناس ولا أسمائِهم، ولا يُخرجون بذلك الإنسانَ إلى هذه الحدودِ وهذه الأسماء، وسمَّوا الجاريةَ غزالاً، وسمَّوها أيضاً خِشْفاً، ومُهْرةً، وفاخِتةً، وحمامةً، وزهرةً، وقضيباً، وخيزراناً، على ذلك المعنى، وصنَعوا مثلَ ذلك بالبروج والكواكب، فذكَروا الأسدَ والثور، والحَمَل والجدي، والعقربَ والحُوت، وسمَّوها بالقوس والسُّنبلة والميزان، وغيرها، وقال في ذلك ابن عَسَلة الشيبانيّ:

فصَحَوتَ والنَّمَريُّ يحسَبُها ... عَمَّ السِّماكِ وخَالةَ النَّجْمِ

ويُروى عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: نِعْمَتِ العَمة لَكُم النَّخلة خُلقت مِنْ فضلة طينةِ آدم وهذا الكلام صحيحُ المعنى، لا يَعيبه إلاّ مَن لا يعرِف مجاز الكلام، وليس هذا ممَّا يطَّرِد لنا أن نقيسَه، وإنَّما نُقدِم على ما أقدَموا، ونُحجم عمّا أحجموا، وننتهي إلى حيثُ

انتهوًا. ونراهم يسمُّون الرجلَ جملاً ولا يسمُّونه بعيراً، ولا يسمُّون المرأةَ ناقة؛ ويسمُّون الرجلَ ثوراً ولا يسمُّون المرأةَ بقرةً، ويُسَمُّونَ الرجل حماراً ولا يسمون المرأة أتاناً؛ ويسمُّون المرأة نعجةً ولا يسمُّونها شاة، وهم لا يضعون نعجةً اسماً مقطوعاً، ولا يجعلون ذلك علامةً مثَل زيد وعمرو، ويسمُّون المرأة عنْزاً.

قال كذلك في كتابه الحيوان: "باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل:

وهو قول اللهّ عزّ وجلّ: " إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً " وقوله تعالىٰ، عزَّ اسمُه: " أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ "، وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحُلَلَ، وركبوا الدوابَّ، ولم ينفقوا منها دِرْهَماً واحداً في سبيل الأكل.

وقد قال اللهّ عزّ وجلّ: " إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً "، وهذا مجازٌ آخر.

وقال الشاعر في أخذ السِّنِينَ من أجزاء الخمر:

أكَلَ الدَّهْرُ ما تجَسَّمَ منها ... وتَبَقَّى مُصَاصَهَا المكنونا

وقال الشاعر: **مَرّتْ بِنَا تَخْتَالُ فِي أرْبَعٍ ... يأكُلُ منها بعضُهَا بعضَا**

وهلْ قوله: وقد أكَلَتْ أظْفَارَه الصَّخْرُ، إلا كقوله: كضَبِّ الكُدَىٰ أفنىٰ بِرَاثِنَهُ الحفْرُ.

وإذا قالوا: أكلَهُ الأسَد، فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف، وإذا قالوا: أَكَلَهُ الأسْوَد، فإنما يعنون النَّهْشَ واللَّدْغَ والعضَّ فقط. وقد قال اللهّ عزّ وجلّ: " أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً "، ويقال: هم لحوم الناس.وقال قائلٌ لإسماعيل بن حماد: أيّ اللُّحْمانِ أطيب؟ قال: لحومُ الناس، هي واللهِّ أطيبُ من الدجاج، ومن الفراخ، والعُنُوز الحُمْر.ويقولون في باب آخر: فلانٌ يأكل الناس، وإن لم يأكلْ من طعامهم شيئاً.

وأما قولُ أوس بن حَجَر:

وذو شُطباتٍ قَدّهُ ابنُ مجدِّعٍ ... له رَونقٌ ذرِّيُّهُ يتأكَّلُ

فهذا على خلاف الأول، وكذلك قول دُهْمان النهري:

سألْتِني عنْ أُنَاسٍ أَكلُوا ... شَرِبَ الدَّهْرُ عليهمْ وأكَلْ

فهذا كله مختلف، وهو كله مجاز.

باب آخر في مجاز الذوق وهو قول الرَّجل إذا بالغ في عقوبةِ عبده: ذُقْ و: كيف ذقته؟ و: كيف وجدتَ طعمَه! وقال عزّ وجلّ: " ذُقْ إنَّك أَنْتَ العَزِيزُ الْكَرِيمُ " .

وأما قولهم: ما ذقْت اليوم ذَواقاً، فإنه يعني: ما أكلتُ اليوم طعاماً، ولا شربتُ شراباً، وإنما أراد القليل والكثير، وأنه لم يذقه، فضلاً عن غير ذلك."

7-قال ابن قتيبة (تـ 276هـ) – رحمه الله – في تأويل مشكل القرآن :

"وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح "

ويقول:"وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز فإنهم زعموا أنه كذب ؛لأن الجدار لا يريد،والقرية لا تقصم .وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم،ولو كان المجاز كذبا،وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا،كان أكثر كلامنا فاسدا لأنّا نقول : نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، والله تعالى يقول :" فإذا عزم الأمر " وإنّما يعزم عليه، ويقول تعالى :"فما ربحت تجارتهم" وإنّما يربح فيها ..."

وقال ابن قتيبة : " فمن الاستعارة في كتاب الله : قوله عز وجل "يوم يُكشف عن ساق " أي عن شدّة من الأمر كذلك قال قتادة وقال

إبراهين عن ابن عباس : عن أمر عظيم، وأصل هذا أنّ الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه شمّر عن ساقيه عنده، فاستعيرت السّاق في موضع الشدّة "[1]

8-قال أبو العبّاس المبرّد (تـ 286هـ) - رحمه الله - في كتابه الكامل في اللغة والأدب:

"آيات من القرآن الكريم وبيان ما فيها من المجاز:

ونذكر آيات من القرآن ربما غلط في مجازها النحويون. قال الله عز وجل: " إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه " آل عمران 175، مجاز الآية أن المفعول الأول محذوف، ومعناه: يخوفكم من أوليائه.

وفي القرآن: " فمن شهد منكم الشهر فليصمه " البقرة 185، والشهر لا يغيب عنه أحد، ومجاز الآية: فمن كان منكم شاهداً بلده في الشهر فليصمه، والتقدير فمن شهد منكم أي فمن كان شاهداً في شهر رمضان فليصمه، نصب الظروف لا نصب المفعول به.

وفي القرآن في مخاطبة فرعون: " فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك أية " يونس92، فليس معنى ننجيك نخلصك، لكن نلقيك

[1] نصوص ابن قتيبة في الاستعارة تدعو إلى النّظر في عبقريّة هذا البلاغي الفذّ فقد آمن بالدلالات الحقيقيّة المستنبطة من المجاز، إذ المجاز ليس ضد الحقيقة المطلقة بل هو طريق آخر لآدائها ن والمجاز ليس كذبا.

على نجوة من الأرض، ببدنك: بدرعك، يدل على ذلك لتكون لمن خلفك آية.

وفي القرآن: " يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم " الممتحنة 1، فالوقف " يخرجون الرسول وإياكم " الممتحنة 1، أي ويخرجونكم لأن تؤمنوا بالله ربكم.

9-قال ابن المعتز (تـ 296هـ) - رحمه الله - في كتابه البديع :

الباب الأول من البديع وهو الاستعارة:

قال الله تعالى هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب. وقال واخفض لهما جناح الذل من الرحمة. وقال واشتعل الرأس شيباً. وقال أو يأتيهم عذاب يوم عقيم. وقال وآية لهم الليل نسلخ منه النهار.

الأحاديث. فأما أحاديث النبي صلى الله عليه فقوله خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها. وقوله ضموا ماشيتكم حتى تذهب فحمة العشاء. وقوله إنا لا نقبل زبد المشركين أي رفدهم. وقال صلى الله عليه رب تقبل توبتي واغسل حوبتي. وقال صلى الله عليه غلب عليكم داء الأمم الذين من قبلكم الحسد والبغضاء وهي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر.

ومن الاستعارة قول امرء القيس من الطويل:

وليل كموج البحر مرخ سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل

هذا كله من الاستعارة لأن الليل لا صلب له ولا عجز

10-قال الرمّاني (تـ 386هـ) - رحمه الله - في رسالة النكت في إعجاز القرآن :

" ونحن نذكر ما جاء في القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة .. وقال تعالى :" واشتعل الرأس شيبا" أصل الاشتعال للنار وهو في هذا الموضع أبلغ وحقيقته كثرة شيب الرأس إلا أنّ الكثرة لمّا كانت تتزايد تزايدا سريعا صارت في الانتشار والاسراع كاشتعال النار وله موقع في البلاغة عجيب، وذلك أنّه انتشر في الرأس انتشارا لا يتلافى كاشتعال النار ... وقال تعالى :"والصبح إذا تنفّس " وتنفّس ههنا مستعار، وحقيقته إذا بدأ انتشاره وتنفّس أبلغ منه، ومعنى الابتداء فيهما إلا أنّه في التنفّس أبلغ لما فيه من التويح عن النّفس "

11-قال ابن جنّي (تـ 392هـ) - رحمه الله في كتابه الخصائص :

"ومن المجاز كثير من باب الشجاعة في اللغة: من الحذوف، والزيادات، والتقديم، والتأخير: والحمل على المعنى، والتحريف.ألا

ترىٰ أنك إذا قلت: بنو فلان يطؤهم الطريق ففيه من السعة إخبارك عما لا يصح وطؤه بما صح وطؤه. فتقول علىٰ هذا: أخذنا علىٰ الطريق الواطئ لبني فلان، ومررنا بقوم موطوئين بالطريق، و يا طريق طأ بنا بني فلان أي أدنا إليهم. وتقول: بني فلان بيته علىٰ سنن المارة؛ رغبة في طئة الطريق بأضيافه له. أفلا ترىٰ إلىٰ وجه الاتساع عن هذا المجاز.

ووجه التشبيه إخبارك عن الطريق بما تخبر به عن سالكيه. فشبهته بهم؛ إذ كان هو المؤدي لهم، فكأنه هم.وأما التوكيد فلأنك إذا أخبرت عنه بوطئه إياهم كان أبلغ من وطء سالكيه لهم. وذلك أن الطريق مقيم ملازم، فأفعاله مقيمة معه، وثابتة بثباته. وليس كذلك أهل الطريق، لأنهم قد يحضرون فيه ويغيبون عنه، فأفعالهم أيضاً كذلك حاضرة وقتاً، وغائبة آخر. فأين هذا مما أفعاله ثابتة مستمرة. ولما كان هذا كلاماً الغرض فيه المدح والثناء اختاروا له أقوىٰ اللفظين؛ لأنه يفيد أقوىٰ المعنيين.

وكذلك قوله سبحانه " واسئل القرية التي كنا فيها " فيه المعاني الثلاثة. أما الاتساع فلأنه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصح في الحقيقة سؤاله. وهذا نحو ما مضىٰ؛ ألا تراك تقول: وكم من قرية مسؤولة. وتقول: القرىٰ وتسآلك؛ كقولك: أنت وشأنك. فهذا

ونحوه اتساع.وأما التشبيه فلأنها شبهت بما يصح سؤاله لما كان بها ومؤلفاً لها. وأما التوكيد فلأنه في ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال على من ليس من عادته الإجابة. فكأنهم تضمنوا لأبيهم عله السلام أنه إن سأل الجمادات والجبال أنبأته بصحة قولهم. وهذا تناه في تاصحيح الخبر. أي لو سألتها لأنطقها الله بصدقنا، فكيف لو سألت مَن مِن عادته الجواب. وكيف تصرفت الحال فالاتساع فاش في جميع أجناس شجاعة العربية.

12-قال الجرجاني (تـ 471هـ) - رحمه الله - في أسرار البلاغة :

ومَن قدح في المجاز، وهمَّ أن يصفَه بغير الصدق، فقد خَبَط خَبْطاً عظيماً، ويَهْرِفُ بما لا يخفى، ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية به، حتى تُحصَّل ضروبه، وتُضبَط أقسامه، إلا للسلامة من مثل هذه المقالة، والخلاص ممَّا نحا نحوَ هذه الشُّبْهة، لكان من حقّ العاقل أن يَتَوفَّر عليه، ويصرف العناية إليه، فكيف وبطالبِ الدِّين حاجةٌ مَاسَّةٌ إليه من جهات يطول عدُّها، وللشيطان من جانب الجهلِ به مداخلُ خفَّيةٌ يأتيهم منها، فيسرق دِينَهُم من حيث لا يشعرون، ويُلقيهم في الضلالة من حيث ظنّوا أنهم يهتدون؟ وقد اقتسمهم البلاء فيه من جانبى الإفراط والتفريط، فمن مغرورٍ مُغرىً بَنَفْيِه دَفعة،

والبراءة منه جملة، يشمئزُّ من ذكره، وينبُو عن اسمه، يرىٰ أن لزوم الظواهر فرضٌ لازمٌ، وضرب الخِيام حولَهَا حَتْمٌ واجب، وآخرُ يغلُو فيه ويُفرط، ويتجاوز حدَّه وَيخبط، فيعدل عن الظاهر والمعنىٰ عليه، ويَسُوم نفسه التعمُّق في التأويل ولا سببَ يدعو إليه. أمَّا التفريط فما تجد عليه قوماً في نحو قوله تعالىٰ: " هَلْ يَنْظُرُون إلاَّ أنْ يَأتِيَهُمُ اللهّ " " البقرة: 12 "، وقوله: " وَجَاءَ رَبُّك " " الفجر: 22 "، و: " الرَّحْمن عَلَىٰ العَرْش اسْتَوَىٰ " " طه: 5 "، وأشباه ذلك من النُّبُوِّ عن أقوال أهل التحقيق، فإذا قيل لهم: الإتيان والمجيء انتقال من مكان إلىٰ مكان، وصفةٌ من صفات الأجسام، وأن الاستواء إن حُمل علىٰ ظاهره لم يصحّ إلاّ في جسم يشغَل حيِّزاً ويأخذُ مكاناً، واللهَّ عز وجل خالق الأماكن والأزمنة، ومنشئ كل ما تصحّ عليه الحركة والنُّقلة، والتمكن والسكون، والانفصال والاتصال، والمماسَّة والمحاذَاة، وأن المعنىٰ علىٰ إلاَّ أن يأتيهم أمرَ اللهَّ وجاءَ أَمْرُ ربك، وأنّ حقَه أن يعبَّر بقوله تعالىٰ: " فَأَتَاهُمُ اللهُّ مِنْ حَيْثُ لَمِ يَحْتَسِبُوا " " الحشر: 2 "، وقول الرجل: آتيك من حيث لا تشعرُ، يريد أُنزلُ بك المكروه، وأفعلُ ما يكون جزاءً لسوء صنيعِك، في حال غَفْلةٍ منك، ومن حيث تأمن حُلولَه بك، وعلىٰ ذلك قوله:

أَتَيْنَاهُم مِن أَيْمَنِ الشِّقِّ عندهُم ويَأتِي   الشقيَّ الحَيْنُ من حَيْثُ لا يَدْرِي

نعم، إذا قلت ذلك للواحد منهم، رأيته إن أعطاك الوِفاق بلسانه، فبين جنبيه قلبٌ يتردّدّ في الحيرة ويتقلّب، ونفسٌ تَفِرُّ من الصواب وتَهْرُب، وفكرٌ واقف لا يجيء ولا يذهب، يُحْضِره الطبيبُ بما يُبرئه من دائه، ويُريه المرشدُ وجه الخلاص من عميائه، ويأبى إلا نِفاراً عن العقل، ورجوعاً إلى الجهل، لا يحضره التوفيق بقَدْر ما يعلم به أنه إذا كان لا يجري في قوله تعالى: " وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ " " يوسف: 82 "، على الظاهر لأجل علمه أن الجماد لا يُسأَل مع أنه لو تجاهل متجاهلٌ فادَّعى أن اللهَّ تعالى خَلق الحياة في تلك القرية حتى عَقَلت السؤال، وأجابت عنه ونطقت، لم يكن قال قولاً يكفر به، ولم يزِد على شيء يُعلَم كذبه فيه فمن حقّه أن لا يَجْثِمَ هاهنا على الظاهر، ولا يضرب الحجاب دون سمعه وبصره حتى لا يعي ولا يُراعى، مع ما فيه، إذا أُخذ على ظاهره، من التعرض للهلاك والوقوع في الشرك. فأمَّا الإفراطُ، فما يتعاطاه قوم يُحِبُّون الإغراب في التأويل، ويَحْرِصون على تكثير الوجوه، وينسَوْن أن احتمال اللفظ شرطٌ في كل ما يُعدَل به عن الظاهر، فهم يستكرهون الألفاظ على ما لا تُقِلُّه من المعاني، يَدَعون السليم من المعنى إلى السقيم، ويرون الفائدة حاضرةً قد أبدت صفحتَها وكشفت قِناعَها،

فيُعرضون عنها حُبّاً للتشوُّف، أو قصداً إلى التمويه وذهاباً في الضلالة.

وليس القصد هاهنا بيان ذلك فأذكر أمثلتَه، على أن كثيراً من هذا الفنّ مما يُرغَب عن ذكره لسخفه، وإنما غرضى بما ذكرتُ أن أُرِيَكَ عِظَم الآفة في الجهل بحقيقة المجاز وتحصيله، وأن الخطأ فيه مُورِّطٌ صاحبَه،،وفاضحٌ له، ومُسقطٌ قَدْرَه، وجاعله ضُحْكةً يُتفَكَّهُ به، وكاسِيهِ عاراً يبقى على وجه الدهر، وفي مثل هذا قال رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم: " يَحْمِلُ هذا العلمَ من كل خَلَف عُدُولُه، يَنفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويل الجاهلين، وليس حَمْلُه روايتَه وسَرْدَ ألفاظه، بل العلمُ بمعانيه ومخارجه، وطرقِه ومناهجه، والفرق بين الجائز منه والممتنع، والمنقاد المُصْحِب، والنَّابي النافر.

وأقلُّ ما كان ينبغي أن تعرفه الطائفةُ الأولى، وهم المنكرون للمجاز، أن التنزيل كما لم يقلب اللغة في أوضاعها المفردة عن أصولها، ولم يُخرج الألفاظ عن دلالتها، وأنَّ شيئاً من ذلك إن زيد إليه ما لم يكن قبل الشرع يدلُّ عليه، أو ضُمِّن ما لم يتضمّنه أُتبعَ ببيانٍ من عند النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك كبيانه للصلاة والحج والزكاة والصوم، كذلك لم يقضِ بتبديل عاداتِ أهلها، ولم ينقلهم عن أساليبهم وطرقهم، ولم يمنعهم ما يتعارفونه من التشبيه والتمثيل والحذف،

والاتساع، وكذلك كان من حق الطائفة الأخرىٰ أن تعلم، أنه عزّ وجلّ لم يرضَ لنظم كتابه الذي سمّاه هُدىً وشفاء، ونوراً وضياءً، وحياةً تحيا بها القلوب، ورُوحاً تنشرح عنه الصدور ما هو عند القوم الذين خوطبوا به خلافُ البيان، وفي حدّ الإغلاق والبُعد من التبيان، وأنه تعالىٰ لم يكن ليُعْجِزَ بكتابه من طريق الإلباس والتعمية، كما يتعاطاه المُلغز من الشعراء والمُحاجي من الناس، كيف وقد وصفه بأنه عربيٌّ مبينٌ. هذا وليس التعسُّف الذي يرتكبه بعض من يجهل التأويلَ من جنس ما يقصده أولو الألغاز وأصحاب الأحاجي، بل هو شيء يخرج عن كلِّ طريق، ويُباين كلَّ مذهب، وإنما هو سوء نظر منهم، ووضعٌ للشيء في غيرِ موضعه، وإخلالٌ بالشريطة، وخروجٌ عن القانون، وتوهُّمُ أن المعنىٰ إذا دار في نفوسهم، وعُقِل من تفسيرهم، فقد فُهِم من لفظ المفسَّر، وحتىٰ كأنّ الألفاظ تنقلب عن سجيّتها، وتزول عن موضوعها، فتحتمل ما ليس من شأنها أن تحتمله، وتؤدِّي ما لا يوجب حكمها أن تؤدِّيَهُ"

13-قال الزمخشري (تـ 538هـ) – رحمه الله في الكشّاف :

في تفسير قوله تعالىٰ : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا

مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)

قال :"غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى : { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط} [الإسراء: 29] ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه لأنهما كلامان متعقبان على حقيقة واحدة، حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطي عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلاً لقالوا : ما أبسط يده بالنوال، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود، وقد استعملوهما حيث لا تصحّ اليد كقوله :

جَادَ الْحِمَى بَسْطُ الْيَدَيْنِ بِوَابِل ... شَكَرَتْ نَدَاهُ تِلاَعُه وَوِهَادُهُ

ولقد جعل لبيد للشمال يداً في قوله :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشِّمَالِ زِمَامُهَا ... ويقال بسط اليأس كفيه في صدري، فجعلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفان .

ومن لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر محجة الصواب في تأويل

أمثال هذه الآية، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبثت به . فإن قلت : قد صحّ أن قولهم : { يَدُ الله مَغْلُولَةٌ } عبارة عن البخل . فما تصنع بقوله : { غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ } ؟ ومن حقه أن يطابق ما تقدمه وإلا تنافر الكلام وزل عن سننه؟ قلت : يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله وأنكدهم . ونحوه بيت الأشتر :

بَقِيتُ وَفْرِى وَانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلا ... وَلَقِيتُ أَضْيَافِي بِوَجْهِ عَبُوسِ

ويجوز أن يكون دعاء عليهم بغل الأيدي حقيقة، يغللون في الدنيا أسارى، وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم : والطباق من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز، كما تقول : سبني سب الله دابره، أي قطعه؛ لأنَّ السَّب أصله القطع . فإن قلت : كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد؟ قلت : المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم، فيزيدون بخلاً إلى بخلهم ونكداً إلى نكدهم، أو بما هو مسبب عن البخل والنكد من لصوق العار بهم وسوء الأحدوثة التي تخزيهم وتمزق أعراضهم . فإن قلت : لم ثنيت اليد في قوله تعالى : { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } وهي مفردة في { يَدُ الله مَغْلُولَةٌ } ؟ قلت : ليكون ردّ قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفي

البخل عنه . وذلك أنّ غاية ما يبذله السخي بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعاً فبني المجاز على ذلك . وقرئ : «ولعنوا» بسكون العين . وفي مصحف عبد الله : «بل يداه بسطان» . يقال : يده بسط بالمعروف . ونحوه مشية شحح وناقة صرح { يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء } تأكيد للوصف بالسخاء، ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة والمصلحة ."

14-قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في المستصفى :

وقال الإمام الغزالي: «القرآن يشتمل على المجاز، خلافا لبعضهم، فنقول: المجاز اسم مشترك قد يُطْلَق على الباطل الذي لا حقيقة له، والقرآن مُنَزَّه عن ذلك، ولعلَّه الذي أراده من أنكر اشتمال القرآن على المجاز». وقال أيضا: «المجاز ما استعملته العرب في غير موضوعه، وهو ثلاثة أنواع: الأول: ما استُعِيرَ للشيء بسبب المُشَابهة في خاصِيَّة مشهورة، كقولهم: للشُّجَاع أسد، وللبليد حمار، فلو سُمِيَ الأبخر أسدا لم يجز؛ لأن البخر ليس مشهورا في حقِّ الأسد. الثاني: الزِّيَادَة، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] فإنَّ الكاف وُضِعَت للإفادة، فإذا اسْتُعْمِلَت على وجْهٍ لا يُفِيد كان على خلاف الوضع. الثالث: النُّقْصَان الذي لا يُبْطِلُ التَّفْهِيم، كقوله عز وجل: ﴿وَاسْأَلِ

ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82] والمعنى: واسأل أهل القرية. وهذا النُّقصَان اعتادته العرب فهو توسُّع وتجوُّز".

15-قال أمير المؤمنين الإمام العلوي (تـ 745هـ) في كتابه الطّراز :

قال : "أجمع أهل التحقيق من علماء الدين والنّظّار من الأصوليين علماء البيان على جواز دخول المجاز في كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلّم في كلا نوعيه ؛ المفرد والمركّب "

16-قال الشريف الرضي (تـ 406هـ) – رحمه الله – :

"وقوله سبحانه " ربّنا أفرغ علينا صبرا " فهذه استعارة ؛كأنّهم قالوا : أمطرنا صبرا، واسقنا صبرا، وفي قوله أفرغ، زيادة فائدة على قوله : أنزل، لأنّ الإفراغ يفيد سعة الشيء وكثرته وانصبابه وسعته "

وقال الشريف الرّضي : "وقوله سبحانه ﴿ ثم ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ وهذه استعارة؛ لأنّ حقيقة الاستواء إنّما يوصف بها الأجسام التي تعلو البساط وتميل وتعتدل، والمراد بالاستواء هاهنا : الاستيلاء بالقدرة والسّلطان، لا بحلول القرار والمكان .[1]

[1] الرّضي رحمه الله من أئمّة أهل البيت ونقيب الطالبيين، وكان يرى هذه الوجهة في تبيان معاني هذه الآيات، وهي وجهة إسلاميّة، ومن أراد التوسّع لمعرفة مذاهب المسلمين في ذلك فلينظر : مقالات الاسلاميين للأشعري، وكبرى اليقينيات الكونية للبوطي .

17-قال ضياء الدين بن الأثير (تـ 637هـ) – رحمه الله – في كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:

يقول عن الاستعارة : " فمما جاء من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالىٰ في أول سورة إبراهيم صلوات الله عليه "آلر كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور" فالظلمات والنور: استعارة للكفر والإيمان، أو للضلال والهدىٰ، والمستعار له مطوي الذكر، كأنه قال: لتخرج الناس من الكفر الذي هو كالظلمة إلىٰ الإيمان الذي هو كالنور.

وكذلك ورد قوله تعالىٰ في هذه السورة أيضاً "وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال" والقراءة برفع لتزول منه الجبال ليست من باب الاستعارة، ولكنها في نصب تزول، واللام لام كي، والجبال ههنا: استعارة طوىٰ فيها ذكر المستعار له،و هو أمر رسول الله (وما جاء به من الآيات والمعجزات: أي أنهم مكروا مكرهم لكي تزول منه هذه الآيات والمعجزات التي هي في ثباتها واستقرارها كالجبال. وعلىٰ هذا ورد قوله تعالىٰ "والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون" فاستعار الأودية للفنون والأغراض من المعاني الشعرية التي

يقصدونها، وإنما خص الأودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك أو ما جرى مجراها لأن الشعر تستخرج بالفكرة والروية، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض، فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق."

2- نصوص حديثة :

1-الدّكتور زكي مبارك – رحمه الله – في كتابه " الموازنة بين الشّعراء " وقد ذهب في أمر صور القرآن مذهبا غالى فيه كثيرا في نفي الحقائق، يقول في بيان الخيال في القرآن الكريم :

"وأصرح من هذا قوله "إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان انّه كان ظلوما جهولا" فانّه لم يحصل عرض ولا إباء ولا إشفاق[1]، وإنّما المراد تصوير التكاليف وما فيها من المشقّة، وتصوير الإنسان وما يغلب عليه من الغرور والجهل بحقائق الأشياء"

[1] كان على زكي مبارك أن يتريّث وينظر في حقائق القرآن الكريم، ويتتبّع أقوال العلماء ويغربل النظريّات قبل أن يصرّح بنفيه هذا، فالعرض في عقيدتنا واقع، ومن أخذ الأمر على سبيل المجاز من علماء الإسلام –إن وجدوا –لم ينكر حقيقة العرض، إنّما أثبته بأسلوب مغاير للأسلوب الحقيقي، وزكي مبارك كان يعيش في فترة دخلت الآراء الاستشراقيّة وواجهتها رؤية متزمّتة لم تقدّم إجابات وافية بسبب إغلاقها منافذ العقل والفهم حاشا ثلّة مباركة من العلماء من أمثال محمّد عبده والأفغاني وحسن البنّا والكواكبي والسباعي ...، فكانت النتيجة ما ترونه عند زكي مبارك وحتّى عند طه حسين .

02-قال الشيخ الدكتور محمود السيّد شيخون – رحمه الله في كتابه " الإعجاز في نظم القرآن " :

" من روائع الاستعارة في القرآن الكريم قال الله تعالى :{وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون} استعير في الآية الكريمة السّلخ وهو كشط الجلد عن الشاة ونحوها لإزالة ضوء النّهار عن الكون قليلا قليلا بجامع ما يترتّب على كل منهما من ظهور شيء كان خافيا فبكشط الجلد يظهر لحم الشاة، وبغروب الشّمس تظهر الظّلمة التي هي الأصل والنور طارئ عليها، يسترها بضوئه ثم اشتق من السلخ نسلخ بمعنى نزيل "

3-قال عبد الرحمن حبنكة الميداني (تـ1425هـ) – رحمه الله في كتابه "البلاغة العربيّة " :

" المجاز طريق من طُرُق الإِبداع البيانيّ في كلِّ اللّغات، تدفع إليه الفطرة الإِنسانيّة المزوّدة بالقدرة على البيان، واستخدامِ الحِيَل المختلفة للتعبير عمّا في النفس من معانٍ تُرِيدُ التَّعْبيرَ عنها.

وقد استخدمه الناطق العربيّ في عصوره المختلفة، في حواضره وبواديه استخداماً بارعاً وواسعاً جدّاً، حتّى بلغت اللّغة العربيّة في مجازاتها مبلغاً مثيراً للإِعجاب بعبقريّة الناطقين بها في العصور

الجاهليّة، وفي العصور الإِسلاميّة، وكان لفحول الشعراء، وأساطين البلغاء، من كُتَّابٍ وخطباء، أفانينُ بديعة، عجيبة ومُعْجِبة من المجاز، لا يَتَصَيَّدُها إلاَّ الأذكياء والفطناء، المتمرّسون بأساليب التعبير غير المباشر عن أغراضهم.

وليس المجاز مُجَرَّد تلاعُبٍ بالكلام في قفزاتٍ اعتباطيّة منْ استعمال كلمة أو عبارةٍ موضوعةٍ لمعنىً، إلى استعمال الكلمة أو العبارة بمعنى كلمة أو عبارةٍ أخرى موضوعة لمعنىً آخر، ووضع هذه بدل هذه للدّلالة بها على معنَى اللّفظ المتروكِ المستَبْدَلِ به اللفظ الآخر.

بل المجازُ حركاتٌ ذهنيّة تَصِلُ بين المعاني، وتعقِدُ بينها روابطَ وعلاقاتٍ فكريّةً تسمح للمعبّر الذكِيّ اللّماح بأن يستخدم العبارة الّتي تدلُّ في اصطلاح التخاطب على معنىً من المعاني ليُدلَّ بها على معنىً آخر، يمكن أن يفهمه المتلَقِّي بالقرينة اللفظيّة أو الحاليّة، أو الفكريّة البحت."اهـ

4- علي الطّنطاوي رحمه الله تعالى : (تـ 1999م)

"إذا قال الله { ثم استوى على العرش}، لم يستطع أحد أن يقول : ما استوى، وهم جميعا معترفون بأنّ المعنى القاموسي البشري لكلمة استوى ليس هو المراد من قوله {استوى على العرش} ... وإذا كانت

الحقيقة هي استعمال اللفظ فيما وضع له وكانت ألفاظ (استوىٰ – جاء – خادع – يمكر – نسيهم) في القرآن في قوله تعالىٰ {ثم استوىٰ علىٰ العرش}،{جاء ربّك}{وهو خادعهم}{ويمكر الله }وقوله {فنسيهم}، في غير هذا المعنىٰ المادي الأرضي البشري الذي وضعت له، لم تكن إذن حقيقة بمقتضىٰ تعريفهم هذا للحقيقة"

5-الشيخ الأديب الأستاذ الشهيد سيّد قطب رحمه الله (تـ 1966م):

يقول في تفسير آية الكرسي في قوله تعالىٰ:{ وسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما } : "وقد جاء التعبير في هذه الصورة الحسية في موضع التجريد المطلق؛ علىٰ طريقة القرآن في التعبير التصويري، لأن الصورة هنا تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقاً وثباتاً . فالكرسي يستخدم عادة في معنىٰ الملك . فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد وسعهما سلطانه . وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية . ولكن الصورة التي ترتسم في الحس من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن. وكذلك التعبير بقوله: { ولا يؤوده حفظهما} فهو كناية عن القدرة الكاملة . ولكنه يجيء في هذه الصورة المحسوسة . صورة انعدام الجهد والكلال . لأن التعبير القرآني يتجه

إلى رسم صور للمعاني تجسمها للحس، فتكون فيه أوقع وأعمق وأحس .

ولا حاجة بنا إلى كل ما ثار من الجدل حول مثل هذه التعبيرات في القرآن، إذا نحن فقهنا طريقة القرآن التعبيرية؛ ولم نستعر من تلك الفلسفات الأجنبية الغريبة التي أفسدت علينا كثيراً من بساطة القرآن ووضوحه .

ويحسن أن أضيف هنا أنني لم أعثر على أحاديث صحيحة في شأن الكرسي والعرش تفسر وتحدد المراد مما ورد منها في القرآن . ومن ثم أوثر أن لا أخوض في شأنها بأكثر من هذا البيان ." (في ظلال القرآن، ج1، ص 290.)

وسيّد قطب رحمه الله تعالى أدرك من حقائق القرآن ما يعزّ على عقول دعاة المخابر الأجنبيّة وعلماء الفتن ممّن يجوّزون العدوان على إخوانهم المسلمين واستخدام العنف وتفكيك المجتمعات، فقد أدرك حقيقة منهج الشرع، وحقيقة حياة المسلم في القرآن، وكيف ينبغي فهم القرآن بعقل عربي اللسان متشبّع بآداب العرب مثلما أخذه الصحابة رضوان الله عليهم الذين فهموا من آيات صفات الله وغيرها ما يجب فهمه بعيدا عن التجسيم والتشبيه والتعطيل، بل بإعطاء

دلالات لهذه الصفات التي هي من كلام الله الحق وتنزيهه تعالى عن ظاهرها المستحيل في حقّه وهذا ما بحّت حناجر أهل السنّة – المفترى عليهم اليوم – في قوله وإثباته، وقد غدا سيّد قطب شهيدا ليس فقط لقضيّة عادلة عنوانها " الشريعة منهج حياة " بل وكذلك لفهم بلاغي رفيع للقرآن العظيم، سيّد قطب الأديب الذي أدرك بأدبيّته وخلفيّاته اللغوية والبلاغيّة أسرارا من القرآن الكريم في منهج الحياة والفهم والخطاب وتحليلة، ثم يرميه بعض من تكلّم فيه بأنّه أديب !! عجيب شأن هؤلاء القوم، ألم ينزل القرآن على أمّة رأسمالها الأدب ؟؟ ألم ينزل في أمّة شاعرة ؟؟ ألم ينزل على قوم الشعر هو ديوانهم ؟؟ فكيف فهموه إذن ؟؟ فهموه بعقليّة الأدب والشعر والسليقة اللغوية والملكة البلاغيّة التي كانت لا تفارقهم في فهم الخطاب وإنتاجه وتوجيه مقاصده .

3- قراءة للعقل البلاغي بين القديم والحديث في فهم إعجاز البيان (على طريق نقد الشنقيطي – رحمه الله –):

قال الميداني رحمه الله في باب الاستعارة / القسم الأوّل : استعارة مدرك بالحس الظاهر لمدرك بالحس الظاهر : " {وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ} [الآية: 37] .جاء في هذه الآية استعارة

فعل "نَسْلَخُ" من عمليّة سَلْخِ جِلْدِ الذبيح من الحيوان بعد ذبْحِه، وهو أمْرٌ مُدْرَكٌ بالحسّ الظاهر، للدّلالة به على عمليّة إزالة ضوء النّهار شيئاً فشيئاً عن مواطن ظهوره على الأرض في حركات وأحداث متتابعات، وهذا أمْرٌ مُدْرَكٌ بالحسّ الظاهر أيضاً، فحركة ذهاب النهار عن المشارق وظهور اللّيل بالتدرج تُشْبه حركة سَلْخ الجلد شيئاً فشيئاً عن الحيوان المذبوح، فاستعير هذا لهذا بفنّيّة دقيقة جدّاً."

هذا ما قاله العلّامة الميداني في بيان مجاز هذه الآية، ولكنّ الشنقيطي في الأضواء لم يجد ما يفسّر به هذه الآية،أو أنّ منهجه لا يسعفه في تبيان إعجاز بلاغة وبيان هذه الآية العظيمة التي اجتهد البلاغيّون والمفسّرون في كشف عجائب قدرة الله في خطابه لخلقه .

واقرأ للميداني رحمه الله وهو يتكلّم عن استعارة مدرك فكري لمدرك فكري أو وجداني في قوله تعالى : {إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ... } ."أي: تكاد تتفاصل أجزاؤها من الغَيْظِ الّذي يُحْدِثُ حركاتِ تفجُّرٍ داخلها.فقد جاء في هذا النصّ استعارةُ كلمةِ "الغيظ" الّذي هو أَمْرٌ يُدْرِكُ دَاخِلَ النُّفوس بالحسّ الباطن، للدّلالة به على أمْرٍ يَحْدُث داخِلَ جَهَنَّمَ ممّا يُمْكِنُ أن يَتَخيَّلَهُ المخاطبون تخيُّلاً، ولكنّهم لا يُدْركونه بالحسّ الظاهر." اهـ،

هكذا يفهمها الميداني بعقل بلاغي فذ، وانظر إلى الإمام سراج الأمّة فخر الدين الرازي في تفسيره لهذه الآية يقول : " قوله : { تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ } يقال : فلان يتميز غيظاً، ويتعصف غيظاً وغضب فطارت منه (شعلة في الأرض وشعلة) في السماء إذا وصفوه بالإفراط فيه . وأقول لعل السبب في هذا المجاز أن الغضب حالة تحصل عند غليان دم القلب والدم عند الغليان يصير أعظم حجماً ومقداراً فتتمدد تلك الأوعية عند ازدياد مقادير الرطوبات في البدن، فكلما كان الغضب أشد كان الغليان أشد، فكان الازدياد أكثر، وكان تمدد الأوعية وانشقاقها وتميزها أكثر، فجعل ذكر هذه الملازمة كناية عن شدة الغضب، فإن قيل : النار ليست من الأحياء، فكيف يمكن وصفها بالغيظ قلنا الجواب من وجوه أحدها : أن البنية عندنا ليست شرطاً للحياة فلعل الله يخلق فيها وهي نار حياة وثانيها : أنه شبه صوت لهبها وسرعة تبادرها بصوت الغضبان وحركته وثالثها : يجوز أن يكون المراد غيظ الزبانية."اهـ، هكذا فهم الرازي جلال اللغة في القرآن، وفتح أبواب الفهم وسلك بها مسالك قد نوافقه عليها في العقيدة وقد نردّها، ولكنّ فتحه لأفق التدبّر في الآية يبعث الحياة في النظر والقراءة الراشدة الواعية الجامعة بين الجمال والحقيقة للقرآن العظيم، ولكن

الشنقيطي في الأضواء يأبىٰ إلا أن يقول لنا وبأسلوب لا يرىٰ في الآية سوىٰ كلمات في العقيدة، ولا يرىٰ شيئا من جلال البيان اللغوي والفعل البلاغي الرفيع، ليقول :" قال الشيخ رحمة الله تعالىٰ علينا وعليه في إملائه في هذه الآية : إثبات أن للنار حساً وإدراكاً وإرادة، والقرآن أثبت للنار أنها تغتاظ وتبصر وتتكلم وتطلب المزيد، كما قال هنا : { تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظ } ."اهـ، هكذا تباع قضايا البلاغة والإعجاز البياني في القرآن الكريم، ولا ينظر إليها إلا من باب الاعتقاد، نعم نحن نعتقد في نار جهنّم أنّها كما وصفها الله تعالىٰ، ولكن هذا لا يمنع من تبيان المسلك الذي اتّخذ لبيان ذلك، إنّها طريقة رفيعة وعالية من البلاغة عبّر بها القرآن عن هذه الحقيقة التي نعتقدها، لأنّ القرآن نزل علىٰ أمّة شاعرة، أليس الشعر مجازا ؟ أليست حياة العرب تنقلا واجتيازا دائما للآفاق في الأرض وفي فنون القول اللغوي؟ هكذا نزل القرآن إنّه مجاز بين عالم الأرض وعالم الملكوت الأعلىٰ لمن اعتبر وتدبّر .

لصالح من تباع قضايا الإعجاز البياني للقرآن الكريم ؟ هل هناك أياد تحاول إهلاك الفهم البلاغي للقرآن العظيم ؟ من يقف خلفها ؟ وما هي العقائد التي تسيّرها ؟

إنّ من عاشر كتابات الفطاحل من علماء البلاغة وكانت زاده ليل نهار، يغار على هذه البلاغة ويغار على العقل البلاغي الذي قدّم أروع التحاليل الخطابيّة لبيان هذا الكتاب الكريم، لنجد اليوم أنفسنا في زمن القدس المحتلّة، في زمن علماء يتكلّمون عن الجوارب والخف ولا ينبسون ببنت شفة من أجل قضيّة القدس، لماذا ؟ لأنّ العقل معطّل، لأنّ البلاغة – وهي وسيلة فهم القرآن – تتعرّض أو تعرّضت لحملة تشويه وتعطيل لآليّاتها – المجاز والتأويل – وهكذا انفرد العقل الصامت الظّاهري – حاشا ابن حزم وظاهرية الزمن الذهبي – بقنوات الرأي المزعوم، وغدت أمامنا بلاغة نقل النصوص، وبلاغة تقديس الظاهر .

كان الصوفيّة ومايزال بعضهم يقدّسون قبور أولياء صالحين، ويتوسّلون عندها، فأنكر عليهم قوم واشتدّوا عليهم وكفّروهم، واليوم نجد قوما يقدّسون الأقوال " أقوال البشر " ويقدّسون "مناهج الدّول "، إذا كان الصوفي القبوري قد عطّل عقله أمام ولي صالح، فإنّ هؤلاء قد عطّلوا عقولهم أمام نصوص يقول لهم قائلها :"تدبّروا وتفكّروا " .

قد يبدو الأمر مبالغا فيه عندما أنقل مسألة بلاغيّة مثل المجاز إلى قضايا الفكر والسياسة وتفسير القرآن، ولكن النّظرة العميقة توحي لي بذلك، إنّ العقول التي حرّرت بلاد الشام والعراق وفتحت مصر والمغرب والأندلس، أحسنت فهم القرآن العظيم والحديث الشريف والسنّة المطهّرة، وسارت على شريعة عظيمة فبنت حضارة لا نزال نعيش على وقعها اليوم، إنّ السيوف التي حرّرت القدس زمن صلاح الدين الأيّوبي، لم تكن لتفعل ذلك لولا تحرير عقول الرجال الذين يمسكونها فقد وجد من يفهم القرآن العظيم والسنّة الشريفة، على الوجه البليغ الذي كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلّم وصحابته رضوان الله عليهم، وإنّ المستعمر الغربي كانت أوّل خطّة نفّذها هي تخريب الملكات اللغويّة، وتحطيم اللسان العربي وسلخ أبنائه عنه، فتمّ له جزء غير قليل من ذلك، ونحن اليوم مع الجزء الثاني من الخطّة، إنّه تخريب الآليات البلاغيّة التي تقف وراء تبيان إعجاز القرآن الكريم، وفهمه على الوجه الذي يضمن نهضة هذه الأمّة.

لم يكن عند العرب علوم متقدّمة وفلسفات ونظريّات حين نزل القرآن على نبيّنا الرسول محمّد صلى الله عليه وسلّم، ولكن كان عندهم ملكة بلاغيّة وآليات بيانيّة مكّنتهم من فهم الخطاب القرآني الجليل،

فخرجوا من شبه الجزيرة وفتحوا العالم، وانظروا إلى الفهم البلاغي في كلمة " فتح " إنّها مفردة قرآنيّة محضة، فُهمت فهما بلاغيّا، صرفها عن معنى الغزو وعن معنى الحرب، وعن معنى السّطو والقتل والاقتتال، ودفعها إلى تحرير شعوب العالم من غطرسة حكّامه وفلسفاته البالية ليبني حضارة الإسلام على شريعة الإيمان والتقوى والإحسان، وكأنّ الشّعوب في سجون مغلقة، ودور المسلمين هو فتح هذه الأبواب وفتح الأغلاق والأقفال وتحرير النفس الإنسانيّة من سطوة الهوى وسطوة الآخر عليها، فلا عبوديّة ولا خضوع إلا للخالق عزّ وجل، إنّه فتح للعقل، العقل الذي كان في ذلك الحين تغلق عليه المسيحيّة واليهوديّة في سجون أقوال القساوسة، وأكاذيب اليهود ومخرقات المجوس وخرافاتهم وزندقتهم، كان العقل سجينا، ففهم المسلمون كلمة الفتح، فأخذوا يفتحون مسالك العقول نحو الهدى والرّشاد، ليكون العقل الإنساني أمام كلام ربّه وخالقه عزّ وجل وأمام سنّة نبيّه المصطفى صلى الله عليه وسلّم، ولقد تعدّدت آراء الفقهاء والمفسّرين وآراء الاعتقادات التي يحتضنها الإسلام، وكنت دوما أتساءل : لماذا لم يعدم أصحاب الفرق الإسلاميّة الذين كانوا يتأوّلون آي القرآن ويوجّهونها وجهات من الفهم قد لا تتطابق مع الرؤية التي يتبنّاها

الحكّام ؟ لماذا مثلا لم يُعدم الزّمخشري ؟ ولماذا لم يطالب الفقهاء زمن المحنة القشيريّة بإعدام خصومهم[1] ؟ .. لماذا لم يقم هناك هرج عظيم لمّا اختلف ابن عبّاس رضي الله عنه مع قول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في رؤية الرسول صلى الله عليه وسلّم لربّه ؟؟ إنّها مسائل عقديّة .. ولكنّ العقل كان قد انفتح، إنّه الفتح الإسلامي مثلما فهمه فطاحلة الإسلام، فهل من عودة لزمن الفتح عقليّا وإجرائيّا حتى نتمكّن من فتح ما اغتصب منّا ... ليت شعري ..

ولو استقصى الباحث كتب التفسير والبلاغة وعلوم العربيّة سيجد غالب أمّة المسلمين وجمهور علمائهم على وقوع المجاز في اللغة والقرآن الكريم، مع ملاحظة المفْرط فيه والمقتصد، لأنّه باب من أبواب فتح العقول على الفهم المتعدّد للقرآن الكريم ولا نجد من المنكرين سوى علماء يعدّون على أصابع اليد (الاسفراييني/ ابن تيمية / ابن القيم الجوزية/ داود الظاهري/ الشنقيطي رحمهم الله تعالى، أحترم وجهتهم وأقدّر أنّ نواياهم كانت لخدمة الإسلام من وجهة نظرهم) أمّا علماء اليوم ممّن ينكرون المجاز، فحالهم عجيب، ينكرونه ثم إذا وضعوا كتبا

[1] ينظر في المحنة القشيريّة ما كتبه الأستاذ : عبد المتعال الصعيدي في كتابه " القضايا الكبرى في الإسلام" وهو كتاب نادر لم يطبع لمرّة ثانية مع غيابه عن الشبكة الكترونيا، فقد فصّل فيه القضايا الكبرى التي مسّت المسلمين وأتى عليها بالتحليل والنّقد والبيان.

ميسّرة في البلاغة لطلبتهم، أدرجوا الاستعارة والمجاز العقلي والمرسل وشرحوا هذه الأبواب بشواهد قرآنية على طريق السكّاكي ومدرسة القزويني، وهذا عجز ظاهر منهم عن دفع سلطان المجاز في العبارة اللغوية وكذلك الأسلوب القرآني المعجز ببيانه.

من يريد إقصاء المجاز من فهم المسلم للقرآن، يبتغي بطريقة مريبة أن يضرب آليات الاجتهاد والتفسير في ديننا الحنيف، وهذا تعطيل للفهم وتعطيل لآلة البلاغة التي تمكّن من فهم الخطاب والعالم.

كان السّلف الصّالح يجادلون المعطّلة في الصفات، وها نحن اليوم على طريق السّلف نجادل معطّلة المجاز في البلاغة وفي بلاغة القرآن، والمجاز شطر الحسن والبيان، وأنا أتساءل : هل كانت عقول هؤلاء العلماء الكبار ممّن درسوا المجاز هل كانت عقولهم سقيمة ؟ هل كانوا على ضلال ؟ هل دعاة ضرب المجاز اليوم أكثر فهما وقربا من اللغة والقرآن؟ علماء اليوم لا يعرفون معنى العيش في ظل الشريعة في خلافة وإمامة كبرى حقيقية لم تنصّبها أياد غربيّة، فكيف يأتي عالم اليوم ليسفّه آراء العز بن عبد السّلام والإمام الغزّالي وابن عربي وغيرهم ؟؟؟ عجيب حالنا اليوم ونسأل الله العافية وصلاح الأمور .

4-رد عبد العظيم المطعني رحمه الله على ابن تيمية و صواعق ابن القيّم:

كنت ولا أزال أتعجّب من عقل ابن القيّم رحمه الله، عقل تمكّن من فتح مغلق المنازل للهروي في المدارج، هو العقل الذي يشهد له الفقهاء بالإبداع المنقطع النظير في إعلام الموقّعين، يقع في شراك نفي المجاز، بل ويسمّيه طاغوتا، وليس لنا إلا أن نبحث عن مخطوطات الصواعق المرسلة لنتثبّت في حقيقة نسبة هذا الكتاب المتناقض مع نفسه لإمام جليل كابن القيّم رحمه الله، في زمن غدت فيه مخطوطات التراث العربي في مواضع غربيّة يصعب الاطلاع عليها، ومادامت الأصول مختفية فليس لنا إلا أن نشكّ في نسبة الكتاب إلى ابن القيّم، وأسلوب الرّجل في هذا الكتاب يغاير أسلوبه في غيره من الكتب، بل إنّ صريح آرائه في كتبه السابقة يعارض رأيه الشاذ في الصواعق[1]

وابن القيّم في كتابه " التبيان في أيمان القرآن " يثبت المجاز، فيقول في الآية الكريمة {خلق من ماء دافق} (الطارق:6) :"والدافق قيل إنّه

[1] نفي المجاز لا يزال رأيا شاذّا نافرا منفّرا لم يصدر قبل ابن تيمية سوى من الاسفرائيني ولم يترك كتابا أو تصنيفا يعرّفنا حقيقة ما ذهب إليه، وبعده صدر من ابن تيمية و ابن القيّم فيما يدّعى عليه وداود الظاهري وابنه منعاه في القرآن، فهؤلاء في الأصل أربعة نفر يتسلّط بهم دعاة المنع في وجه بحر خضم من السادة العلماء بين سنّة وشيعة مثبتين للمجاز ....

فاعل بمعنى مفعول، كقولهم : سرّ كاتم، وعيشة راضية، وقيل هو على النسب أي ذي دفق"[1]

ويثبت كذلك التأويل المجازي في قوله تعالى {عيشة راضية} فيقول :"أمّا العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضيّة، لأنّها اللائقة بهم، فشبّه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها، كأنّهم رضيت بهم ورضوا بها، وهذا أبلغ من مجرّد كونها مرضيّة فقط فتأمّله "[2] .

وقد رصد المطعني[3] رحمه الله تعالى مواضع التحليل المجازي لابن القيّم وتبيّن من خلال ما ذكره عنه أنّه يبني تحليلاته على المجاز العقلي والمرسل والاستعارات.

وقد أنجز الأستاذ الدّكتور المطعني (تـ 2008م) رحمه الله عملا عظيما في سبيل كتاب الله ولغته وبلاغته، عنوانه "المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع"، استقصى فيه أصل المجاز وضرورته ووقوعه في لغة العرب والقرآن الكريم وفحص فيه عن

---

[1] (التبيان في أيمان القرآن، تحقيق عبد الله بن سالم البطاطي، دار عالم الفوائد، ص : 161)

[2] المصدر نفسه، ص : 161.

[3] ينظر : المطعني عبد العظيم، المجاز عند ابن تيمية وتلاميذه، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر، ط3، 2014م

آراء العلماء من عهد السلف، مرورا بالشافعي والإمام أحمد وسيبويه والفرّاء وثعلب والمبرّد، مؤكّدا أنّ من جوّز وقوع المجاز لا يحصره عدّ ولا يمكن رصد كافّة آرائهم في تجويزه، فقد أجمعوا على ذلك وقد ارتأينا وضع جدول يلخّص المجوّزين وانتماءاتهم :

اللغويون والنحاة	**الأدباء والنقاد**	**الإعجازيون والبلاغيون**	**المفسرون والمحدّثون**	**الأصوليون والفقهاء**
سيبويه	أبو زيد	الرماني	الطّبري	ابن حزم
أبوعبيدة	القرشي	العسكري	ابن عطيّة	الظاهري
ابن قتيبة	الجاحظ	ابن سنان	الزمخشري	الغزالي
أبو العباس	ابن المعتز	الخفاجي	ابن قتيبة	الآمدي
المبرد	القاضي	الجرجاني	ابن فورك	البيضاوي
ابن جنّي	الجرجاني	السكاكي	الشريف	الأسنوي
أحمد بن	الآمدي	القزويني	الرضي	ابن الحاجب
فارس	الشريف	التفتازاني		عضد الملة
أبو البقاء	الرضي	الشريف		ابن النجار
العكبري	ابن الأثير	الجرجاني		الحنبلي

أمّا الذين منعوا وقوع المجاز في اللغة أو القرآن فيقول عنهم الأستاذ عبد العظيم المطعني :"ما نعو المجاز قبل الإمام ابن تيمية قلّة لا تكاد تذكر، سواء كان المنع عامّا في اللغة العربيّة كلّها، أو في القرآن الكريم خاصة "[1].

وقد اعتذر المطعني لابن تيمية في منعه للمجاز قائلا :" إنّني مقتنع تمام الاقتناع بأنّ معتقد الإمام ابن تيمية كان هو إجازة المجاز لا منعه : إجازته في اللغة بوجه عام وإجازته في القرآن العظيم بوجه خاص، أمّا مذهب المنع فتلك فكرة طارئة فيما أرىٰ حملته ظروف تعرّض لها الإمام وهو ينافح بقلمه الجريء، وعلمه الواسع عن أصول الاعتقاد وعن كلام الله وأسمائه وصفاته "[2]

فهو يرىٰ أنّ دفاع ابن تيمية عن عقيدته في وجه تأويلات الباطنيّة وغلاة الصوفيّة هو ما دفعه إلىٰ منع المجاز، وقد كان مذهبه في الأصل والحق إثبات المجاز وله دلائل يعرضها في كتابه ضمن الجزء الثاني فليراجعها من يروم معرفة الحقيقة .

---

[1] عبد العظيم المطعني، المجاز في اللغة والقرآن الكريم، ج2، ص : 05.

[2] المرجع نفسه : ج2، ص : 227.

"الإمام ابن تيمية يواجه الإمام ابن تيمية" فصل وضعه المطعني عنوانا لفصل واجه فيه ابن تيمية في إنكاره للمجاز بمواقف يصرّح فيها بالتأويل المجازي الذي أنكره عن الآخرين، فيقول مثلا الإمام ابن تيمية في تأويل السمع والبصر في قوله تعالى {أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم} (الزخرف 80) :" فإنّه يراد من رؤيته وسمعه إثبات علمه بذلك، وأنّه يعلم هل ذلك خير أم شر، فيثيب على الحسنات، ويعاقب على السيئات" (مجموع الفتاوى، ج5، 232).

وقد خلص المطعني إلى نتيجة مفادها أنّ ابن تيمية له مذهبان :

مذهب جدلي نظري : يمثّل رفضه للمجاز نظريا بسبب استعار الحرب بينه وبين الجمهور في مسألة الإيمان وكذلك في مسألة صفات الله تعالى فقد أخذها بحدّة ومنع وجود آراء مخالفة له كل همّها تنزيه الله تعالى.

مذهب سلوكي عملي : يمثّل تجويز المجاز والإقرار به عمليا في تحليلاته وتفسيراته للقرآن الكريم، إذ كثيرا ما نجده يرجع إلى التأويلات المجازية ويبدع في تخريجها بعقل بلاغي لولا تلاعب فكرة إبقاء اللفظ على ظاهره لكان لابن تيمية شأن آخر.

أمّا ابن القيّم الذي اعتبر المجاز طاغوتا إذا صحّت نسبة الكتاب إليه، فالنّاظر إلى كتابه "الفوائد المشوق" يجد ابن القيّم يثبت المجاز ويستخدم آلياته في تبيان كلام الله تعالى، ومهما قيل عن "الفوائد المشوق" فيبقى لصيقا بابن القيّم عند جميع القدماء ولم ينكره عليه أحد، وهذا يعارض ما نجده في الصواعق المرسلة، وقد اهتم المطعني بالرد على كل الأوجه (خمسين وجها) التي اعترض بها ابن القيّم على المجاز، وبيّن تهافتها المطعني وجها وجها، وينقل كذلك عن ابن القيّم قوله بالمجاز في حرّ كلامه حين يقول :"إذا قلت لك عندي يد الله يجازيك بها تبادر من هذا النعمة والإحسان ولمّا كان أصله الإعطاء وهو باليد عبّر عنه بها لأنّها آلته" لكنّه للأسف يعود ويسوّي بين اليد في التركيب السابق وبين التركيب القائل " هذا الثوب خطته لك بيدي"، ويقول عنها بأنّهما حقيقتان متساويتان، ويعلّق المطعني على مقالته هذه :" إلى هذا الحدّ حمله التّعصّب على المغالطة والتّعسّف والحق أحق أن يتّبع ولو كان مرّا"[1] .

---

[1] المطعني، المجاز في اللغة والقرآن الكريم، ج2، ص : 262.

وتولّى المطعني نقد كل احتجاجات ابن القيّم في منع المجاز، وبيّن عيوبها، بل وكشف تناقض ابن القيّم في مقالته، وهذا ما زادني اقترابا من الفكرة التي تنفي نسبة الصواعق لابن القيّم، والله أعلم .

خاتمة :

إنّ ما يجده القارئ في هذا الكتاب هو مجموع سنوات مضت كتب على فترات مختلفة، وربّما فيه تطوّر حاصل في الأفكار الواردة فيه، آثرت جمعها وتنسيقها لمشاركة غيري، وأن أعرض ما وفّقني الله على أهل العلم، فما وافق الحق أخذوه وما رأوه مجانبا له ردّوه وأرشدونا إلى ما يرونه حقّا .

إنّ الله يعلم أنّ هذا اجتهادي في سبيل خدمة لغة القرآن فهو في الأول والأخير في سبيل الله تعالى، ومثلما قال الغزّالي أردنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله، وكذلك فكل رأي لي في هذا الكتاب قد يؤخذ ويردّ عدا قول الله تعالى ونبيّه الكريم وما اتّفقت الأمّة عليه ..

أسأل الله أن يوفّقنا لما يحبّه ويرضاه .

من المصادر والمراجع :

(لم أذكر جميع المصادر، فمن أراد التنقيب عنها فليراجع الفصول والهوامش)

1-ابن الأثير ضياء الدين،المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد 2-محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 1999م .

3-الأشعري أبو الحسن :

-الإبانة عن أصول الديانة،دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2003م.

-مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، دار الحديث، القاهرة، ط1،2005م.

4-البغدادي عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق،دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2005م.

5-الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1998م.

6-ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق رضوان بن شقرون،دار النشر المغربية، الدار البيضاء،ط1، 1985م.

7-التوحيدي أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، دار الكتاب العربي، بيروت،2005م.

8-المقابسات، تحقيق حسن السندوبي،مصطفى بابي الحلبي، القاهرة،1929م.

9-الثعالبي أبو منصور،فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة،ط3، دت .

10-الجاحظ أبو عثمان، البيان والتبيين،تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط1، 2010م.

11-الجرجاني ركن الدين، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م.

12-الجرجاني عبد القاهر :

أسرار البلاغة في علم البيان،تحقيق عبد الحميد هنداوي،دار الكتب العلمية،بيروت، ط1، 2001 م.

13-دلائل الإعجاز، تحقيق محمد شاكر،القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1992م.

14-الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز،تحقيق خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط6، 2012م.

15-الجرجاني علي بن محمد الشريف الحنفي، كتاب التعريفات،تحقيق نصر الدين التونسي،القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007م.

16-ابن جني أبو الفتح عثمان :

-الخصائص، تحقيق الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2007م.

17-سر صناعة الإعراب،تحقيق محمد حسن إسماعيل،دار الكتب العلمية،بيروت، ط2،2007م.

18-حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط2، 1989م.

19-ابن حزم الأندلسي :

التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تحقيق إحسان عباس، مكتبة الحياة، بيروت، دت.

20-ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتاب العربي .

21-الخطّابي، بيان إعجاز القرآن،ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام،، دار المعارف، القاهرة، ط6 2012 م.

22-الخطيب القزويني،الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م.

23-ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق مصطفى الشيخ،مؤسسة الرسالة ناشرون،دمشق، ط1،2012م .

24-الرازي فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق نصر الله حاجي مفتي أوغلي،دار صادر،بيروت، ط1،2004م.

25-ابن رشيق القيرواني،العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، 2009م.

26-الرماني علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام،، دار المعارف، القاهرة، ط6 2012 م.

27-الزمخشري جار الله :

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق خليل شيحا ، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2009م.

28-السجلماسي أبومحمد القاسم، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق علال الغازي،مكتبة المعارف، الرباط، ط1، 1980م.

29-السكاكي أبويعقوب، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،1998م.

30-ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة،دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1989م.

31-سيـــــبويه أبوبشر، الكتـــاب،تحقيق عبد السلام هارون، دار التاريخ ، بيروت ، ط1، 2006م.

32-السيوطي جلال الدين :

-أسرار ترتيب القرآن،تحقيق عبد القادر عطا و مرزوق علي إبراهيم،دار الفضيلة،القاهرة، 2002م.

33-الإتقان في علوم القرآن، تحقيق خالد العطار،دار الفكر، بيروت، 2008م.

34-المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق عبد الرحيم محمود،دار الفكر،بيروت، 2007م.

35-معترك الأقران في إعجاز القرآن،تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية،بيروت،ط1،1988م.

36-الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات أو عنوان التعريف بأسرار التكليف،تحقيق محمد مرابي، الرسالة ناشرون،دمشق،ط1، 2013م.

37-الشريف الرضي،تلخيص البيان في مجازات القرآن،تحقيق محمد عبد الغني حسن،مكتبة الآداب، القاهرة،ط1،2012م.

38-أبو عبيدة، مجاز القرآن،تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي القاهرة، د ت .

39-العسكري أبو هلال،كتاب الصناعتين، الخانجي،القاهرة، ط1، 1320هـ.

40-العلوي يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2009م.

41-ابن فارس أحمد بن زكرياء، الصاحبي في فقه اللغة العربية، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت،ط2، 2007م.

42-ابن قتيبة عبد الله بن مسلم،تأويل مشكل القرآن، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1،2009م.

43-القرطبي،الجامع لأحكام القرآن،تحقيق عماد زكي البارودي و خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط10، 2012م.

44-القرشي أبو زيد،جمهرة أشعار العرب، دار صادر، بيروت، ط2، 2008م.

-----

1. أدونيس علي أحمد سعيد، الشعرية العربية،دار الآداب،بيروت،ط2، 1989م
2. أدونيس، مقدّمة إلى الشعر العربي، دار العودة، ط4، 1983م
3. أمين الخولي، مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير، دار المعرفة، ط1، 1966م
4. الراضي رشيد، الحجاج والمغالطة، دار الكتاب الجديد، بيروت،ط1، 2010م
5. صمود حمادي، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط3، 2010م.
6. صولة عبد الله:

7. الحجاج أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج،ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، كلية الآداب منوبة، دت.
8. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ط1. 2007م
9. ضيف شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط13، 2011م.
10. الطلبة محمد سالم محمد الأمين،الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2008م.
11. سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق .
12. سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة – مصر، ط17، 2004
13. سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه،دار الشروق،ط5، 1983م .
14. المازني، حصاد الهشيم، دار الشروق .
15. محمّد محمّد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، مكتبة وهبة، ط4، 2012م

16. محمّد محمّد أبو موسى، التصوير البياني دراسة تحليلية . مكتبة وهبة

17. مصطفى صادق الرافعي إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتبة رحاب، الجزائر .

18. نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي، دار الفكر

19. محمد الكتاني، مطارحات منهجيّة حول الأدب والنّقد وعلاقتهما بالعلوم الإنسانيّة، دار الثقافة – المغرب

20. جورج لا يكوف، الاستعارات التي تقتل، تر عبد المجيد جحفة وعبد الإله سليم، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2005م

21. ول ديورانت، قصة الفلسفة، مكتبة المعارف بيروت، ط4

22. إيبور أرمسترونغ ريتشاردز، فلسفة البلاغة، تر : سعيد الغانمي و ناصر حلاوي

23. بول ريكور، الاستعارة الحيّة، تر : محمد الولي، دار الكتاب الجديد .

المؤلّف في سطور :

الأستاذ محمّد عبد الرزاق بوعافية من مواليد مدينة قسنطينة تحصّل على شهادة البكالوريا شعبة آداب ولغات بتقدير جيّد، تخرّج من المدرسة العليا للأساتذة بقسنطينة –قسم اللغة والأدب العربي – الأوّل في دفعته، عمل أستاذا للتعليم الثانوي في اللغة والأدب العربي .

*تحصل على شهادة الماجستير سنة 2015م من جامعة سطيف 2 بتقدير حسن جدّا بإشراف "د. عبد الغني بارة " حول موضوع: "البلاغة العربيّة في ضوء البلاغة الجديدة"

*دكتوراه علوم في النقد المعاصر وقضايا تحليل الخطاب بجامعة سطيف-2 حول البلاغة العربية في المغرب،وهو نائب رئيس جمعيّة خريجي المدرسة العليا للأساتذة مكلّف باللجنة العلميّة والثقافيّة للجمعيّة . من أعماله ومؤلفاته: "البلاغة العربيّة والبلاغات الجديدة، نشر سنة 2018م عن مؤسسة حسين رأس الجبل للنشر والتوزيع. كتاب كيمياء المجاز، والبلاغة العربيّة بين الإقناع والامتاع

mohamedbouafia66@yahoo.fr.